

القرآن
أصل التربية وعلم النفس

القرآن

أصل التربية وعلم النفس

أحمد جهان الفورتية

الطبعة الأولى:

1994 م

حقوق النشر محفوظة للناشر

الناشر:

دار الملتقى للطباعة والنشر

لیماسول - قبرص

ص. ب: 6527

المحتوى

المحتوى	5
المقدمة	7
تعريف علم النفس	11
مدلول النفس	12
المدرسة القرآنية	12
القرآن والمشكلة	14
قاعدة التدرّج في التربية	16
موقف القرآن من الغرائز	19
المنهج القرآني يراعي ميول النفس البشرية	22
وتلك غريزة	25
منهج القرآن في ضرب الأمثال	27
تنوع الوسيلة	29
المنهج القرآني والبيئة	32
المنهج القرآني والنماذج الإنسانية	36
الرحلة العلمية	44
التربية بالقُدوة	48

55	المحاكمة
58	أنشودة العمل
60	الذئب البريء
62	التقرير الوافي
64	الحكم بالبراءة
65	الخطوة الاقتصادية المتكاملة
67	التطبيق العملي
68	الفروق الفردية
77	التوجيه خلال الممارسة
85	التوجيه في مجال الدفاع عن العقيدة
90	الرؤيا المنامية
103	مواقف للتمحيص والابتلاء
108	التوجيه في ميدان النفس
113	المنهج القرآني والواقع البشري
122	اللائحة التنظيمية للاجتماعات
127	والله لا يستحي من الحق
130	القيمة التربوية المستخلصة مما تقدم
134	درس المناجاة
136	يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر
140	حقيقة الانسان
144	وصفات الشفاء
153	في محيط الأسرة
157	قافلة الايمان
161	المراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

هذه المحاولة التي اقدمها لأخي القارئ الكريم هي محاولة متواضعة دفعني إلى القيام بها ما لاحظته من خلال اطلاعي على بعض كتب التربية وعلم النفس أن كثيراً ممن تناولوا هذا العلم بالدراسة والبحث كانوا مقتنعين بأن وضع قواعده قد تم على يد علماء الغرب، ولم يقف هذا الاقتناع داخل دائرة الباحثين والدارسين بل انتقل إلى أبنائنا الطلبة عن طريق المناهج الدراسية التي ما فتئت تؤكد - بإصرار - بأن فضل السبق كان لأولئك العلماء.

ولقد كنت أستغرب عندما أقف مع أبنائنا الطلبة على بعض النقاط في مقرراتهم: كطرق التدريس، والتربية وعلم النفس، فألمح الإصرار على ما ورد فيها بادياً لا يقبل التحول، ولهم في ذلك عذرهم: فهي مقررات المناهج الدراسية.

أما أنا، فأجد نفسي مضطراً إلى تذكيرهم بأن أصول هذا العلم موجودة في القرآن الكريم، فما عليهم إلا أن يرجعوا إليه للاعتراف من معينه واستخراج كنوزه التي لا ينفذ لها مدد:

﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ مَدَادَ الْكَلِمَاتِ رَبِّهِ لَنَفَعْنَا لِنَجْمٍ قَبْلَ أَنْ تَنْفَعَكَ كَلِمَاتُ رَبِّهِ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (1)

ولعل القارىء يجد في ثنايا محاولتي هذه قبساً من دليل يهديه إلى أصول ذلكم «العلم» فقد بذلت قصارى جهدي في الكشف عنها من خلال القصص القرآني ومواقف الرُّسل مع قومهم مبرزاً بعض القضايا الإنسانية التي تمسّ النفس ممّساً مباشراً فتكشف أبعادها.

ثم عمدت إلى توضيح بعض خصائص المنهج القرآني في تناوله لتلك القضايا، فمنها:

- 1 - إن المنهج عندما يسوق الأمثلة يسوقها في ثوب يثير الإعجاب؛ ليوظف في النفس غريزة «حب الاستطلاع».
- 2 - إن المنهج يؤثر أن تكون الوسيلة التعليمية - في الغالب - خارجة عن محيط ذات المتعلم لكي تتاح له فرصة التمكن من المشاهدة والإلمام بالكليات.
- 3 - يستخدم المنهج عناصر البيئة لإبراز المعاني وتشخيصها لينبّه العقل إلى أن منافذه الكاشفة لتلك الحقائق إنما هي الحواس.
- 4 - يختار المنهج النماذج الإنسانية ذات التجارب المفعمة بألوان الكفاح لتكون قدوة يُقتدى بها. وهذه الخاصية من أهم الركائز الأساسية في مجال التربية والتعليم.
- 5 - المنهج القرآني يتعامل مع الواقع البشري ولكنه لا يقر التماذي والغلو في الآفاق البشرية.
- 6 - المنهج يحيط بالنفس البشرية في مختلف مواقفها في مجالات الحياة.
- 7 - يتجنب المنهج الحرج ويسلك قاعدة التيسير والرفق.

(1) سورة الكهف، الآية: 104.

وفي الختام أود أن أنبّه إلى أن ما ذكرته إنما هو قطرة من بحر أرجو أن تكون - إن بلغت مقدار قطرة - توطئة لغيث عميم يغمر ساحة الدارسين والباحثين ممن تخصصوا في مجال التربية والتعليم؛ ليصبح منهج القرآن الكريم رائداً ومصدراً.

«وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

المؤلف

1991 م

تعريف علم النفس

إن علم النفس كعلم مستقل متميز من غيره لم يظهر إلا متأخراً؛ فقد ظلت جهود الباحثين تبذل منذ القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر حيث برز علم النفس ككائن حي له هيكله وجسمه، وعندئذ وقف شامخاً يرتاد كل الميادين، ويغشى مجالات الحياة؛ لأنه العلم الذي يتناول بالدرس والبحث والتحليل خلجات النفس البشرية متتبّعاً خطواتها في رحلتها إلى أن تصبح عملاً، وحركة، وحياة.

فبحث هذه الظواهر هو ما يعرف اليوم بـ «علم النفس»، إذن ما هو «مدلول النفس»؟:

وقديماً قيل عن حقيقتها: إنها الجوهر الحق، أما الجسم بالنسبة لها فلا يعدو كونه وعاء ومحلاً تستقر وتحلّ فيه كما يحلّ الماء في الإناء.

ومن العلماء من رأى أن الجسم أصل لكل ألوان النشاط الحيوي من فكر وحس وإدراك وتذكر وانفعال، وليست النفس إلا انعكاساً لمثل هذا النشاط الصادر عن الجسم.

وقد ورد ذكر النفس في القرآن الكريم في مواضع كثيرة فبلغ أربع عشرة وثلاثمائة مرة.

أما مدلولها في القرآن - حيث وردت - فإنه يتحدّد بسياقها ولا يخرج في وضوحه عن كونه يشمل الذات والنفس معاً حيث مستقر العقل والعقل منطلق الحركة الفكرية، ومناط التكليف وهو ذو الإرادة المميزة المختارة التي ألهمت طريقيّ: الخير والشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (1).

والنفس قد تطمئن فتفوز بخيريّ: الدنيا والآخرة، فترضى بشواب ربها حيث تنال رضاه.

أما التي تكثر اللوم؛ فهي دائماً تبحث عن الأفضل وتسعى حثيثاً لتحصيل ما يسعدها في الدنيا والآخرة.

وحيث تقف الذات موقف المتبريء من النفس لكثرة أمرها بعمل السوء وإلحاحها المتكرر وانجذابها نحو الشهوات الواقعة في دائرة الشرّ قد يحدث عندئذ الانفصال وعدم الانسجام والتناسق. ففي هذه الحال يؤذن لعوامل التقويم والتربية أن تتدخل وتبحث بشتى الطرق عن الوسائل التي تحمل بين طياتها عناصر التوجيه المثمرة.

المدرسة القرآنية:

ومن ثم ندرك - جازمين - أن المدرسة القرآنية التي تربي فيها رسولنا محمد صلوات الله عليه قد وضعت منذ البداية - بداية الدعوة - أسس المبادئ النفسية لتكون منهالاً ينهل منه البشر، ومنازة يهتدي بنورها السائرون على درب الهدى واليقين. فمحمد عليه السلام لم يكن يعرف مما سيقدم إليه في تلك المدرسة، ولكنه هُيئ حتى يكون على استعداد.

بدئت إرهابات النبوة بالرؤيا الصالحة، وقد لزم «غار حراء» يتعبّد فيه الليالي ذوات العدد في خلوته تلك، وفي فصله المدرسي ذاك وجبريل عليه السلام يياشر مهمته التعليمية الأولى ينزل؛ ليعلم محمداً كيف يقرأ؟

(1) سورة الشمس، الآيات: 7 - 10.

ومحمد لم يكن يعرف القراءة ولم يكن في حياته قد أمسكت يمينه بالقلم، ولم يكن في مقدوره في تلك اللحظة أن يعرف عمن طلب منه أن يقرأ شيئاً.

استفسارات متنوعة، ورغم ذلك يظل جبريل منذ اللقاء الأول يكرر كلمة ﴿إِقْرَأْ﴾ وفعل الأمر مقتضاه: أن ينفذ المطلوب ما طلب منه: أن يقوم، أن يتحرك، أن ينطق، أن يؤدي أي شيء، ولكن محمداً لم يمكنه إلا أن يرد: «ما أنا بقارىء».

لحظات تمرّ خفافاً أم ثقلاً؟ لا أحد يدري غير أن اليأس لم يجد سبيلاً الى النفوس، ثم يقرأ محمد: ﴿إِقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ (1).

في هذا الموقف كررت كلمة القراءة عدة مرات؛ ليكون التكرار قانوناً يحكم الربط بين المؤثر والاستجابة، وليزداد الشوق والتشويق حتى يبلغ أقصى درجات التلهف إلى ما تتوق إليه النفس المتعطشة إلى الاطلاع على دروب المعرفة الإلهية.

ومن خلال هذا القلق، تتم عملية الوحي في جوٍّ من المعاناة والضغط حيث يخرج منها النبي وجبينه يتفصّد عرقاً، وجسمه يرتعد؛ ليحسّ بعد ذلك بأن للإعداد لمثل هذه المهمة لذة ومتعة يدركها المُعَدُّ حيث يقف لتأدية الرسالة التي أنيطت به.

ومن ثم ندرك - مع الفارق - مدى صعوبة العملية التعليمية دراسة وزمناً؛ فقد استغرق نزول القرآن مدة ثلاث وعشرين سنة وبالقياس - إن صح - نستطيع أن نقول: إنها المدة التي ينهي فيها الطالب مرحلة تعليمه العالي «الجامعي».

(1) سورة العلق، الآيات: 1، 2، 3، 4، 5،

ولقد كان يتخلّل هذه المدة فترات ينقطع فيها الوحي على النبي: محط زمني؛ لينبّه النفس البشرية إلى تأكيد وترسيخ عنصر التشويق الذي استخدم كعامل مهم جدّاً، بل ضروري - في مجال التعليم يفتتح به المعلم درسه؛ لينجذب طلابه إلى ما يقول - فيكون بذلك أشدّ انتباهاً وأعمق يقظة.

وقد يكمن عنصر التشويق هذا في مشكلة من المشكلات التي تمسّ واقع الانسان المعاش، عندئذ يبرز الجانب التطبيقي بالممارسة العملية في إبان وقوعها، حيث تلفت النظر وتوقظ العقل وتحرك الوجدان، وتثير التساؤلات والاستفسارات ذات الدلالات المعرفية التي قد تتفرّع منها ألوان متعددة تهدى - ملحة - إلى التطلع المتلهف إلى قبسات الحل الإلهي.

القرآن والمشكلة:

من القرآن ما كان لنزوله سبب: وهو وقوع المشكلة التي تعترض حياة المسلم؛ فيقف عندها العقل البشري حائراً؛ فلم يجد لحلها من سبيل ولا ملجأ يلجأ إليه سوى أن يهرول ساعياً إلى النبي سائلاً شاكياً، وما عند النبي من جواب غير أنه يملك الترقب والانتظار وربما تطول الوقفة أو لا تطول، ولكنها وقفة المتعلّم تحمل في طياتها التوتر والقلق:

إنها اللحظة التي تسبق لحظة الوصول إلى الهدف والهدف إنما يعني: الارتياح والغبطة بلذة الظفر باكتشاف المعرفة من بين حنايا المجهول.

والنظرية التربوية الحديثة تقول:

«إن الانفعال والتوتر الخفيف ضروريان للعملية التعليمية» حقيقة لا ينكرها أحد؛ فهي في نفسه، يشعر بها قلقاً وتوتراً إذا استغلق عليه أمر أو عجز عن إيجاد حل لمشكلة.

فالمشكلة إذن هي امتداد للحياة المنتجة، وهي أيضاً أم التفكير والدافع القوي إلى استخدام العقل، والمنبّه الحقيقي له من غفوته ولو لم توجد لركد وخمل.

ففي القرآن الكريم أمثلة كثيرة تؤكد منهجه التربوي: منها: هذه «خولة بنت ثعلبة» تأتي النبي شاكية سائلة تعرض مشكلتها التي تتلخص في أن زوجها «أوس بن الصامت» قال لها - وهو في حالة غضب - «أنت عليّ كظهر أمي» وكان هذا القول في عرف الجاهلية يحرم الزوجة تحريماً أبدياً. المشكلة وقعت، والنبي لم يجد حلاً سوى قوله: - «ما أراك إلا قد حرمت عليه».

وخولة لم تقتنع فطلت تراجع وتحاور وتجادل وتشتكي إلى الله والله يسمع المحاورة والمجادلة إلى أن نزل الحل واكتمل الحكم قرآناً يُتلى ونصاً مفصلاً يرجع إليه البشر في قضاياهم الاجتماعية:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (1).

وهذا «هلال بن أمية» يرجع من أرضه عشاء فيجد من زوجته ما يسيء فينطلق إلى النبي قائلاً يا رسول الله: - لقد رأيت بعيني وسمعت بأذني، ولكن النبي يقول له: «البينة أو حدّ فيه ظهرك».

وماذا يفعل هلال؟ أي بينة هذه والأمر قد انقضى؟ الحد إذن؟

ويصرّ هلال على موقفه مخاطباً رسول الله: «والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبريء ظهري من الحد».

فنزلت آية اللعان تبرئة لظهر هلال وتأكيذاً لصدقه: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَوْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (2).

بذلك هدأت نفس هلال وسلم ظهره وتقبل الحكم بارتياح، فالحل الإلهي قد أتى بمثابة البلمس: فكان عميق الأثر في نفس هلال كما جعله شديد الإحساس بقيمة الصدق، فياض الشعور بالاعتزاز والثقة بالنفس؛ فهو كجائزة

(1) سورة المجادلة، الآية: 1.

(2) سورة النور، الآية: 6.

قدّمت للمتعلم والمعلم لتؤكد العلاقة بين الاستجابة والارتياح، وكومضة من ومضات التوجيه الإلهي التي ترشدنا إلى رفعة وسمو هذا المبدأ النبيل، مبدأ اللين والحكمة والجدل الهادئ الرفيق لتستميل القلوب نحو تقبل ما ترى فيه النفع والفائدة والنجاة، وتستجيب النفوس لما يُلقى إليها من جميل القول وحسن التوجيه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوْهُمْ فِي الْأَمْرِ إِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (1).

قاعدة التدرج في التربية:

تتمثل هذه القاعدة التي أُقرّت كمبدأ أساسي في العملية التعليمية في كونها تبدأ بالسهل ترويضاً للنفوس إلى أن تصل في مراقبيها أعلى درجات السلم التعليمي.

وإن أسمى منهج تربوي قد سلكه القرآن الكريم في هذا المجال حيث تدرّج في أحكامه خطوة خطوة مراعيّاً في ذلك مدى إلف الناس لعاداتهم الاجتماعية ومقدار امتزاج نفوسهم بها، كتحرّيم الخمر مثلاً؛ فقد كانت زينة مجالسهم، ومصدر علاقاتهم وسبيل أنسهم، ودعامة متينة من دعائم صداقاتهم، مدحوها في أشعارهم، وأثنوا عليها في أدبهم واعتبروها ملهمتهم روعة الفن ورقة العاطفة. كانوا يرون أن سعادة حياتهم بها ولها؛ لذلك نرى القرآن الكريم تجنّب أن يصبّ حكم التحريم دفعة واحدة: لأن مدرسة التربية الإلهية تحرص كل الحرص على ملاينة المرئّي وأخذه بالرفق والحسنى ليأنس إلى المُتلقى عنه طيب النفس راضياً.

فقد روي الإمام أحمد عن أبي هريرة قال:

«قدم رسول الله ﷺ المدينة - وهم يشربون الخمر ويمارسون الميسر - فسألوا رسول الله عنها، فنزلت الآية:

(1) سورة آل عمران، الآية: 159.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ٢١٧ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (1).

قال الناس: - ما حرمت علينا إنما قال: - إثم كبير. وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم فصلى رجل من المهاجرين وأم الناس في صلاة المغرب فخطب في القراءة.

فأنزل الله آية أغلظ منها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَءُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سَكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (2).

ثم نزلت آية أغلظ منها أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (3).

ثم يرد التعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (4).

إذن؛ فالمشكلة قد حلت حلاً نهائياً بعد أن أرقت المسلمين وشغلت أذهانهم فترة زمنية مرت بدقائقها وساعاتها مثقلة بالقلق والحيرة والترقب والانتظار.

إذ الآية الأولى وردت إجابة عن سؤال ملح نابع من قلوب يعمرها الإيمان؛ قارنت وقاست وقدرت تقدير من ينشد استيفاء المعلومة واستكمال حيثيات

(1) سورة البقرة، الآية: 217

(2) سورة النساء، الآية: 43.

(3) سورة المائدة، الآية: 92.

(4) سورة المائدة، الآية: 93.

الحكم، فوجدت بعد هداية أن الإيمان الكامل لا يلتقي مع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

كيف يلتقي الطهر والنقاء مع الرجز في مكان واحد؟ في وعاء يحمله المؤمن؟

النظرة الذكية السليمة أدركت هذا فكانت الإجابة: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ فَعِلَ لِلنَّاسِ وَإِثْمَهُمَا أَكْبَرُ مِنْ ثَقَعِيهِمَا﴾ (1).

إنها التهيئة والاستعداد، تلك هي المرحلة الأولى، بُدئ الدرس فتفتحت أذهان كثير من الصحابة، تنبهوا إلى خطر هذه العادة على إيمانهم فأقلعوا وابتعدوا عن مواقع الشبهات وتجنبوا أمم الخبائث.

أما من لم يستفد من بداية الدرس، فإنه قد وقع في محذور، إما لأن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك؛ ليكتمل الدرس أو أن تمكن العادة تلك قد كان متنوعاً في مستواه.

وعلى أية حال، فإن الذي وقف بين يدي الله في صلاته لم يدر ما يقول. من أجل ذلك ينتقل الدرس الإلهي إلى المرحلة الثانية ليضيق الدائرة الزمنية على من لا يرى أن الأمر لم يحسم بعد.

﴿لَا تَقْرَءُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (2).

ويستمر الدرس في متابعة القضية. فمرحلة الحسم النهائي تأتي بعد التهيئة الكاملة التي جعلت النفوس تتلهف لحل المشكلة كما ارتآه الدرس الإلهي حيث خُتم كما بُدئ بالتشويق، منافع في أول اللقاء ثم فلاح وفوز في الوداع. إنها التربية الإسلامية والمنهج المتكامل الذي يتلاءم مع النفس البشرية في صعودها وهبوطها، ونموها وتوقفها، ورفضها وخضوعها، وحركتها وسكونها، وقلقها وهدوئها.

(1) سورة البقرة، الآية: 217 .

(1) سورة النساء، الآية: 43.

إن المنهج يضعها في المحك العلمي حيث تجابه مشكلات الحياة لتدرك قيمة القلق الإيجابية الظافرة بالنصر وتعي جيّداً كل احتمالات الفشل؛ لتتغلب على عوامله، وتسبر عمق الحياة بما فيه من متناقضات.

ولقد جاء علم النفس بتحليلاته فأثبت بأن للقلق قيمة إيجابية بالإضافة إلى آثاره السلبية؛ فهي عامل منشط إذا لم يتجاوز الحد المعقول.

إن المتعلّم إذا ووجه بواجبات صعبة تراءت له من خلالها بوادر الفشل؛ فإنها - حتماً - ستدفعه إلى مضاعفة الجهد والمثابرة وتركيز كل قواه العقلية ليستخلص لنفسه جائزة النجاح في مسيرة حياته الفضلى.

ومنهج القرآن الذي سلك مسلك التدرّج واليسر والسهولة فقد عمد أيضاً إلى متابعة النفس البشرية لتحيا في اتّزان يكفل لها الصحة والعافية حيث صبغ أحكامه بصبغة الموعظة والنصح والإرشاد.

إيقاظاً للضمائر، وحفزاً للهمم: يذكر العقاب الأليم ثم يسجّل في مقابل ذلك الثواب الوفير والجزاء الحسن حتى يكون المرء بين الخوف والرجاء معتدلاً متزناً في عواطفه وأمزجته، كابحاً لغرائزه، يوجهها إلى فعل الخير ويصرفها فيما يُرضي الله.

ووقوف المرء بين جانبي الخوف والرجاء هو ما اصطلاح عليه العلماء المحدثون بتسميته «الصحة النفسية» فقد ذهبوا إلى أنها:

«التآلف والتوافق مع المجتمع في القيام بالمسؤوليات والإنتاج» وما ذلك إلا ثمرة من ثمار التآرجح بين الخوف والرجاء الذي يوفّر للفرد المعادلة والقوة اللازمة للانطلاق والخلق والتمتع والتكيف.

موقف القرآن من الغرائز

الغرائز:

هي قوى فطرية أودعها الله في الكائنات الحيّة لحفظ بقائها وإعدادها للنضال في بيئتها وتهيئة سبل العيش لها؛ فهي في الحيوان: ناطقاً وغيره. وإن

كانت في غير العاقل لا تقبل التهذيب ولا التعديل تؤدي وظيفتها تبعاً لدورها الذي رسمته لها الحكمة الإلهية.

أما في الإنسان، فهي قابلة للتعديل والتهذيب؛ لأن الإنسان قد كُرم وشُرف بحمله الأمانة رغم مشقتها وثقلها.

ومن الغرائز التي يجب أن تنطلق؛ لتدفع الظلم وتكبح جماح الشر، غريزة الغضب عندما يكون المحرّك والمثير لها انتهاك حرمة من حرّمت الله؛ فموقف الغاضب هنا موقف إصلاحي محمود الأثر ممدوح العواقب.

أما فيما عدا ذلك؛ فإن التوجيه القرآني يُوجّه المسلم إلى كظم غيظه، بحيث يحول دون ظهور آثاره المدمرة؛ فهو لا ينفى في علاجه صفة الغضب في جانبه الانفعالي الذي لا يمكن تعديله حيث سبر أغوار النفس البشرية فوجه تقويمه للجانبين: النزوعي والإدراكي.

وهذا ما أشار إليه علم النفس حين حلّل النفس بغرائزها، فوصل إلى النتيجة التي تؤكد مبدأ إمكان تعديل الغرائز في جانبها: النزوعي والإدراكي.

أما الجانب الانفعالي، فإنه لا يقبل التغيير: غير أن الأثر الناتج عن الانفعال - وهو المسمى بالنزوع - هو الذي يطراً عليه التغيير والتعديل كما أن الإدراك الذي هو وليد الحواس يتغيّر كذلك.

والقرآن الكريم يوضح هذا المبدأ في منهجه التربوي، حيث جعل صفة كظم الغيظ من صفات المتقين، والتقوى هي الصحة النفسية التي تعني بمفهومها: الوسطية والاعتدال، فلا تطرف إلى حد الخطأ، ولا تذبذب إلى حد الإحجام، لا إفراط ولا تفريط. وقد سجلت الآية الكريمة هذه المعلومة بأسلوب بليغ مشوق، افتتحت بطلب المبادرة التي تدفع النفس إلى التطلع، وتحرك فيها غريزة حب الاستطلاع، تحفزها إلى السباق للظفر بما هو معد معروض:

﴿ سَارِعُوا إِلَى الْمَغْفِرَةِ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾

اشتملت الآيتان على ثلاث دعائم تربوية تحمل في مفهومها قوى نفسية ثلاثاً:

- 1 - الإنفاق في الحالتين قوة وإرادة صلبة تقف في مواجهة عوامل الشح الكامنة في الإنسان وتقهّر أنانيته المقيتة.
- 2 - حبس الغيظ قوة تكبح جماح الغضب، فلا تدعها تفلت لتدمّر وتخرب.
- 3 - ويأتي بعد ذلك العفو، وهو قوة أشد القوى الثلاث وأمضاها سلاحاً؛ لأنها تمحو آثار الغضب النفسية وتطهرها من درن الحقد، وتنقي القلب من شوائب البغض وسخائم الأثرة، وتمنح المجتمع الجو الطبيعي الذي تنمو في تربته القيم الرفيعة، وتسود ساحته أخلاق القرآن مثلاً خية لتسير جوانب الحياة وتوجه الأجيال الصالحة، خُلُقاً وديناً وعِلْماً وتربية تسير في كنف القرآن تكلاًها تعاليمه السمحة التي رسمت لـ «غريزة الجنس» إطاراً يكفل للمجتمع السلامة والصحة والطهر والعفاف والنمو الطبيعي، حيث السكن والرحمة والمودة في محضن الزوجية وعش السعادة.

ومن الواضح لدى الجميع أن الغريزة الجنسية هي من أهم الغرائز، إن لم تكن هي الأساس الذي يبنى عليه البناء الإنساني، فمنذ أن وجد الإنسان على هذا الكوكب الأرضي - وهو يسعى - مدفوعاً بدافع حب البقاء الى ربط حلقات سلسلة امتداده في هذه الحياة، ولن يجد من سبيل يحقق له هذا الهدف سوى التكامل الجنسي، ومن ثم عكف الفلاسفة والباحثون على دراسة هذه الغريزة فكان لها من وقتهم وجهدهم أوفر نصيب.

(1) سورة، آل عمران، الآيتان: 133، 134.

فمنهم من رأى كـ «فرويد» أنها مدار الحياة كلها ومنبع المشاعر الإنسانية بلا استثناء حتى حركة الطفل الرضيع صبغها بصبغة الجنس.

ولا أحد ينكر ما لهذه الغريزة من أهمية، ولكن لا أحد يوافق «فرويد» على مغالاته هذه التي بلغت درجة الشذوذ.

وعلى أية حال، فإن الدراسات التي أجريت حولها والقوانين التي وضعت لتنظيم علاقة الذكر بالأنثى كانت من السعة والعمق بحيث لا تُحصى ولا تحاط علماً، وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن الغريزة التناسلية تتفرّع منها ثلاث غرائز أخرى:

الأولى، تتمثل في الاتصال الجنسي.

والثانية، تتصل بالجانب الروحي بين الزوجين، الميل القلبي وما ينشأ عنه من مودة وامتزاج روحي.

والثالثة، وهي الانتماء الأسري وما ينشأ عنه من شفقة وحنان نحو أفراد الأسرة.

هذه العناصر الثلاثة تتكوّن منها الرابطة الأسرية، والرافد الذي يغذي ينبوع السعادة تحت مظلة الحياة الهائلة الكريمة التي يسودها الوئام والانسجام.

أما إذا فُقدَ عنصر من هذه العناصر فإنه يقع كبت للمركب المفقود الذي يؤدي - إن لم يجد العوض كالانصراف إلى بعض الهوايات التي تملأ فراغ هذا النقص - إلى الإصابة بالأمراض المعروفة «بالقلق العصبي». ومن ضمن أسباب هذه الأمراض عدم إرواء الغريزة الجنسية من ينابيعها الثلاثة.

المنهج القرآني ومراعاة الميول

القرآن الكريم سلك في تنظيمه مسلك التربية التي تحدد ميول النفس البشرية، ورغباتها فوضع أسسه في إطار المسؤولية التي تجعل من الفرد عضواً

صالحاً في بناء الأمة بتحملة جزءاً من أعباء الجماعة، حيث يكون منها كالعضو من سائر الجسم، يحس بشدة ارتباطه وقوة تماسكه.

فالتوجيه القرآني يهدف إلى وضع النفس في موقع سموها وتشريفها لتحقيق كرامتها التي أرادها الله لتشعر بميزتها من سائر المخلوقات الأخرى المسخرة الخادمة. ولا ريب، فإن المخدوم - في الأغلب الأعم - إنما ينال الشرف بميزة فيه، والقرآن إنما يدخل إلى أعماق النفس؛ ليسجل بأسلوبه التربوي الأسس التي تتكوّن منها الأسرة؛ لأنه لا يريد من الغريزة الجنسية أن تنطلق انطلاقها العاثر المدمر الذي لا يجني المجتمع من ورائه سوى الدمار والفناء.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكَرُونَ﴾ (1).

الآية في سوقها للمعلومة تقرر:

1 - وحدة الخلق، وهذه اللفتة تنبه النفس إلى أصالة النشأة حتى تحسّ بالاطمئنان من تلقي الدرس الذي يشتمل على الدعائم التي يقام عليها صرح الأسرة.

2 - بعد التهيئة والتمهيد خلصت الآية إلى السكن. والسكن هو الميل المؤنس الذي يصدر عنه الحنان والعطف.

3 - ثم المحبة والرحمة، وهاتان الركيزتان هما اللتان تسمو بهما الحياة الزوجية، وينمو التمازج النفسي والتوافق الروحي، حيث يتم التآلف والانسجام في جو من التفاهم والتعاون، وتنبيه العقل في الختام إلى استخدام الفكر فيما اشتملت عليه الآية من علامات دالة على قدرة الله الحكيم العليم.

ثم يتسامى المنهج في تدرجه ليكمل ملاحقه ربطاً محكماً لحلقات

(1) سورة الروم، الآية: 20.

الانسجام الأسري ﴿أُجِدَ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الَّتِي رَفَّتْ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ
وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (١).

والملاسة هنا إنما تعني الستر والدفع وحفظ الحياة الآمنة التي تفضي إلى النهوض بمستوى الأمة ورقيتها في شتى المجالات. ومن ثمارها تماسك لِيَنَاتِ الأسرة لتمنح للمجتمع جيلاً يُسهم في بناء حضارة الأمة وتقدمها.

ولقد عبر القرآن أيضاً عن معنى الملابس هذه بعبارة تسمو بلاغتها عن كل قول إذ يذكر الحرث:

﴿يَسْأَلُكُمْ حِزْبٌ لِّكُم فَاتُّوا حِزْبَكُمْ أَنِي سَأَلْتُمُوقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْوَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُونَوَتَنبِشِرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (2).

فالقرآن يؤثر لفظة الحرث ليوجه الانتباه إلى:

- 1 - موضع النبات كالأرض التي تستنبت.
- 2 - الفائدة المرجوة من ثمار هذا النبات.
- 3 - العناية به والسهر للمحافظة على رعايته عبر مراحل نموه.
- 4 - الاستعداد النفسي قبل الإقدام على المهمة التي ترك في تنفيذها اختيار الكيفية بعد تحديد موضعها.
- 5 - ختام الدرس، الأمر بالتقوى والتذكر باللقاء والبخيرة العميم لمن يعي الدرس ويفهم محتواه ويطبقه، وهو يدرك أن ما رُسم إنما هو قبس من لدن المنهج الإلهي الذي لم يقف في تربيته للنفس البشرية عند معالجة جانب واحد، بل راعى مختلف الحالات التي تعترها: إذا وقع تنافر كان الحل ولكنه حل قد يكون مؤقتاً، فقد يقيّد بفترة زمنية ربما تلثم النفوس

(1) سورة البقرة، الآية: 186.

(2) سورة البقرة، الآية: 221.

خلالها فتؤوب، إنها الفيئة الواعية الناتجة عن يقظة النفس وإدراكها لتعود إلى تصحيح موقفها.

وما أكثر ما تُصحح المواقف!

ويمضي المنهج الإلهي في خطواته العلاجية متتبعا ميول النفس ارتفاعاً وانخفاضاً، إنه يُقحم الحقوق الاقتصادية كوسيلة علاجية، لأنها تعتبر من أهم العوامل التي تدفع النفس إلى الرضا والاستكانة، فهي ذات سحر قوي في استمالتها ووقع عنيف في عزوفها إذا ما حُرمت؛ لأنها جُبلت على حب التملك.

وتلك غريزة أودعها الله في النفس؛ فكانت ذات دفع عارم لحركة الحياة في صراعها المستمر من أجل التدافع البشري؛ لتعمر الأرض ولينفسح المجال لرؤية العدل أن ترتفع، ولصرح الحق أن يقام، ولولا ذلك لما كان للحق دولة ولا للشر جولة، حيث لم يكن للدنيا بقاء. أما والغرائز باقية فلا بد من بقاء التوجيه، والتوجيه منهج يحوي البذور التي تتلاءم ومنعرجات النفس في انطلاقها وجموحها وجزعها وهلعها وكنودها وجحودها، حتى لا تطغى ولا تهن ولا تسأم ولا تمل؛ لكي تتزن في سيرتها حتى من حيث حبها وكرهها؛ فإن القرآن يضع لها مصدراً من المصادر الثابتة التي ينبعث منه التشريع الإلهي.

فالحب لوجه الله لا يتجاوز هذه الدائرة. والكره إنما يقع فيما يغضب الله.

وليس من الإنصاف أن نبالغ في كلتا الحالتين، إذا كان الموقف يستدعي ذلك، على أن يكون هذا الحب في المرتبة الثانية بعد حب الله ورسوله.

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَرِهْتُمْ مَوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (1). إذن، فجانِب الاعتدال مطلوب، والموقف المتزن ينبغي أن تلتزم به

(1) سورة الممتحنة، الآية: 7.

النفس كالتزامها بمسار المنهج القرآني منبعاً ومصبباً، استفادة من دروسه واستجابة لتوجيهاته الرشيدة وحكمته البالغة.

إن حب التملك غريزة تصاحب الإنسان منذ طفولته المبكرة وتظلّ تخطو معه في خطوات نموه حيث تتنوّع حاجاته تبعاً للتطور الذي تفرضه ضرورة الحياة.

ولقد وضع المنهج القرآني خطوطاً واضحة للتخفيف من حدّة هذه الغريزة. فقد أباح التملك وحثّ على السعي، ولكنه قيّد طرقه بإطار مشروع، إن يكن قد ذم الحب الجرم للمال؛ فهو في المقابل مدح الذين يتغلبون على شح النفس، وفي الوقت نفسه يجعل الظفر بالبر إنفاق مما تحبه، وإلى جانب هذا يحرص القرآن على تنويع وسائل الإيضاح لتربية النفس. فيذكرها بوخامة عاقبة الترف، ويضرب لها الأمثلة الحية الموهلة في واقع الحياة، كإهلاك من أطعاهم حب المال، ولأن المال فتنة فإنه يقود إلى الظلم والعصيان.

فقارون بغى على قومه؛ لأن كنوزه أعمته، ولأن ذهبه زين له حب شهوة الظلم والكبر ولذة البطر، فاعتقد أن ما امتلكه إنما يرجع فضله لذكائه وحذقه وعلمه الغزير بضروب الربح وتدبيره الواعي بأنواع الاستثمار.

ولما نصحه ممن يكتنون له المودة ويتمنون أن يكون ذا استجابة لدعوة الخير شمش بأنفه وركب رأسه وسخر مستهزئاً:

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾

ولقد تضمّن الدرس تأكيد المعلومة حيث ازدادت وضوحاً بضرب الأمثلة التي انطوت على ما يثير كوامن النفس السيئة ويدفعها إلى التوقف للنظر الفاحص فيما حولها وفيما خطته من خطوات نحو نقطة الاعتدال.

وهذا التوقّف يُعتبر المرحلة الأولى من مراحل استيعاب الدرس وتنمية العقل التي تتمّ بطرق ثلاث:

- 1 - بتهديب قوى الملاحظة المميّزة.
 - 2 - بتقوية ملكة المنطق لتمكن الفرد من تتبع الحجة من نقطة لأخرى.
 - 3 - ثم بالعمل على جعل القدرة على المقارنة - أي الحكم على الأشياء حيث تقترب من النضج التام.
- منهج القرآن في ضرب الأمثال:

إنه يعتمد اعتماداً دقيقاً على توضيح الجانبين: السلبي والإيجابي أو المضيء والمعتّم، وذلك للإحاطة بجوانب الموضوع وجذب النفس البشرية إلى التعمق داخل حنايا الدرس؛ لتتفاعل مع أحداثه حيث تنتقل من الشيء إلى ضده.

والانتقال الذهني عامل من العوامل المساعدة لترسيخ المعلومة وإثارة الرغبة في فعل الخير. وقد أجمع علماء التربية على أن الرغبة إذا انطبعت في النفس فسرعان ما تتحول إلى عقيدة، ثم ترسب فكرة العقيدة في العقل الباطن وتذوب فيه حتى يؤمن بها إيماناً عميقاً، ثم يقذفها الإلهام الذكي والحيوية المتوثّبة في صورة أفعال وأعمال.

كما أنه لا يقف في تناوله للجانب السلبي عند نقطة التنبيه، بل يذهب إلى التعمق والخوض في تفاصيل العقوبة وتنوع أساليبها؛ ليكون وقعها على النفس أشدّ، ولا سيما عندما يبرز الثواب المقابل بتفاصيله وجزئياته؛ لتتم العملية التعليمية عن طريق تداعي الأفكار. وهذه النظرية قد عُرفت عند علماء التربية «بأنها الأفكار التي بينها تقارب أو تتابع أو تماثل أو تخالف. وحين يذكر أحد الشيئين - حتماً - يتبادر إلى الذهن الشيء الآخر.

ولتوضيح ذلك، نكتفي بذكر قصة صاحب الجنتين الذي افتخر وتباهى مفتوناً بكثرة ماله وولده، ولم يلتفت إلى ما قدم إليه من إرشاد. ونصح والحجة المدعومة بالدليل الواضح وضوحاً يغوص في أعماق النفس؛ لتقف فتمعن النظر:

﴿قَالَ لَوْ صَاحِبُنِي وَمَنْ حَضَرَ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ نَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِي ۖ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ﴾ (1). ثم يمضي في تذكيره وتبصيره بأن العاقبة للمتقين الأبرار، وأن ما عند الله خير وأبقى، وأنه القادر على أن يدمر ويزيل ويمحق. وينتهي الدرس مذكراً بسوء العاقبة لمن كفر وعاند؛ فقد سجل صورة المأساة في أروع لوحة ذات ألوان وظلال: يقف الذي يعتقد دوام الدنيا ونعيمها - وهو يقلب كيفية حسرة وندامة، إذ يشاهد ثمار حديقته تحترق، ومياه آباره تغور، فهل يجدي الندم؟ ليس الآن ولا من معين ولا نصير، لقد فات الأوان، ومن هنا تطل خاتمة الدرس متوجة بانتصار الحق الذي تتلّاه إليه النفس. تلك التي ما انفكت تتابع مقدماته خطوة خطوة حتى تبلغ نشوة نتائجه؛ لتبقى بعد ذلك في تطلع وشوق إلى تلقّي الجديد من الدرس.

وعند عرض الأمثلة وسوقها يعمد المنهج القرآني إلى:

- 1 - إثارة الإعجاب؛ ليوّظ في النفس غريزة «حب الاستطلاع».
- 2 - جعل هذا الحب في إطار توجيهي، وذلك بتغذيته بمختلف الوسائل المُعينة على استكشاف الحقائق.
- 3 - إيضاح الأدلة والبراهين المتنوعة التي تدفع النفس إلى التعلّق بمتابعة البحث دون الشعور بالملل أو السأم.

وهذه الركائز الثلاث هي التي ينبثق من إطارها التفكير العميق الخلاق الذي يجعل النفس تقف في تناولها للمعضلات والمشكلات موقفاً يتجاوز دائرتها؛ لتنتقل حاملة بذور الإصلاح، حيث تجد البيئة التي تمتلك مقومات التجاوب والتفاعل الإيجابي الذي يمهد السبيل لموكب الخير والعدل وانتصار كلمة الحق. فإبراهيم عليه السلام، إذ التمس من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى لم تُقدم إليه المعلومة في صورة قضية منطقية ذات مقدمة

(1) سورة الكهف، الآيتان: 36، 37.

ونتيجة، بل قدمت إليه مدعومة - بوسيلة إيضاح - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ بِمَا قَالَتْ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَنْظُرَ مِنْ قَلِيلٍ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1)

ما نراه؛ فإن الدرس قد بُدئ بالسؤال، ولأن المقام مقام تربية وتعليم أُوثرت لفظة «الرب» وحيث إن شرح الدرس يقتضي معرفة مدى استعداد السائل لتلقي المعلومة؛ لأن القضية قضية إيمان، كان السؤال الثاني كمفتاح للولوج في الوقت الذي برز فيه عنصر الاستجابة المطمئنة للبدء في عرض - وسيلة الإيضاح.

والسؤال الذي يرد هو: من يتولى إعداد هذه الوسيلة وتصميمها؟

إنه المتعلّم نفسه؛ ليعمل بيديه: يضمّ ويفرق وهو يرى بعينه، ويقوم ويقعد ويمشي، ويقف. وعاء زمني استغرقت هذه العملية، وظرف مكاني أحاط بعناصر تلك الوسيلة - أربعة طيور وأربعة جبال ودعوة، ثم سعي ليتم الدرس، وقد استوعب المتعلّم تفاصيله ودقائقه، وعلم أن الله عزيز غالب على أمره حكيم فيما يفعل وفيما يذر.

تنوع الوسيلة:

قد تُصبح في ذات المتعلّم وفيما يستخدمه من مركوب وفيما يتناوله من زاد.

﴿أَوَكَلَّيْهِمْ مَرَعًا عَلَىٰ قَرْنٍ مِّنْ خَاوِيَةٍ عَلَيْهِمْ وَعِشَاهَا قَالُوا بَلَىٰ فَنَجَّىٰ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلَىٰ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَىٰ

(1) سورة البقرة، الآية: 259.

الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾.

يبدأ الدرس بإثارة الإعجاب؛ ليوّظ «حب الاستطلاع»، وعقب ذلك، يتم إعداد الوسيلة ليكون المتعلّم أحد عناصرها بعد أن مر بمرحلة السؤال التمهيدي والإجابة التي عدلت، فعرض العناصر: الطعام والشراب لم يتغير رغم طول المدة، ولكن الحمار قد تفسّخ جسده ولم يبق منه شيء سوى العظام المبعثرة، وها هي تلثم وتكتسي باللحم علامة على قدرة الله لتزيل الاستغراب وترسخ المعلومة في ذهن من يعي ويدرك.

وقد يؤثّر المنهج أن تكون الوسيلة خارجة عن محيط ذات المتعلّم لكي تترك له فرصة التمكن من المشاهدة والإلمام بالكليات؛ ليتم إبراز المعلومة عن طريق الاستنتاج ثم مرحلة الممارسة العملية التطبيقية، كالتجربة العملية.

فابن آدم - قابيل - حينما سولت له نفسه قتل أخيه - هابيل - وارتكب جريمة القتل هذه لم يفكر فيما يفعل بالجثة إلا بعد أن وجد نفسه في مأزق وحيرة، عندئذ يبدأ الدرس بالوسيلة التعليمية: يأتي الغراب - ليكون المعلم الأول - يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه؟

ويستوعب التلميذ الأول التجربة بكل ما تحويه من مرارة وقسوة، لتبقى من بعده سنة متبعة في بني آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٩﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ إِنَّ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بَيْتِي وَاثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاُ

(1) سورة البقرة، الآية: 258.

الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٢﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَيِّلَتِي أَلَمْ تَكُنْ تَكُنْ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٣﴾ * مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْتُمْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسُ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٤﴾ (١).

تناول الدرس عرض توضيح الدافع النفسي الذي دفع «قاييل» حسداً من عند نفسه إلى ارتكاب أشنع جريمة عندما أحس بالإحباط الذي استولى على نفسه عقب رفض قبول قربانه، فتحول رد فعل هذا الحرمان إلى حقد مدقمر انصبت شحنته على أخيه الذي رآه يظفر بكل ما حرم منه. ومما زاده غيظاً أن أخاه لم يقف منه موقف المتحدّي المدافع عن نفسه، فقد مضى يذكره ويوضح له مسوغات الإعراض عن مجاراته في تهديده بغية أن تتولد عن هذه المسوغات الاستجابة في نفسه لتحديث عملية التعلم؛ إذ الاستجابة شرط أساسي يتوقف عليها تقبل المعلومة.

فذكره:

- 1 - بالتقوى.
- 2 - بالخوف من رب العالمين.
- 3 - بالإثم المتضاعف.
- 4 - بأصحاب النار.
- 5 - بجزاء الظالمين.

ولكن «قاييل» لم يعِ الدرس ولم يستوعب المعلومة، بل اندفع متمادياً في غيه، وباندفاعه طوعت له نفسه قتل أخيه. ويستمر الدرس بعد ذلك في عرض الوسيلة التوضيحية والتقويم الختامي الذي سجل قيمة حياة الإنسان في حالة سموها.

(1) سورة المائدة، الآيات: 34-29.

ومن هنا يتبين أن الوسيلة التوضيحية التي يستخدمها المنهج القرآني، أيًا كان نوعها ومصدرها، قد تكون ذات مضمون يحمل ألواناً مختلفة من الأدلة الواضحة على إثبات العديد من القضايا والأحكام، كما رأينا فيما تقدم.

وكما يبدو جليًا في بقرة بني إسرائيل التي استخدمت كوسيلة ذات محتوى يشتمل على العناصر الأساسية لموضوع الدرس المتمثلة فيما يلي:

1 - الإلحاح في السؤال المتعلق بذات الوسيلة وهذا قد يؤثر تأثيراً بالغاً على الاستجابة في عملية التعلم، حيث يؤدي إلى صرف المتعلم عن صلب موضوع الدرس، ويضيع كثيراً من الجهد والوقت. ثم يفضي بالسائل إلى متاهات الأجوبة التي تنتهي بدورها إلى تضيق الحكم وقوته.

2 - اكتشاف مرتكب جريمة القتل التي تمت في سرية يتعذر معها إيجاد الأدلة، بل يستحيل. ولولا ذلك لحفظت القضية وقيدت ضد مجهول؛ لعدم كفايتها.

3 - إثبات قضية البعث. حيث تمت عملية الضرب والإحياء ثم الإخبار الذي يُغني عن كل شاهد ولا يدع مجالاً لمنكر، ولكنه يُفسح المجال لمشاهدة العلامات الدالة على قدرة الله؛ لتستيقظ العقول فتدرك الحقائق الواضحة والبراهين الساطعة.

﴿قَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُخَيِّلُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَفْقَهُونَ﴾⁽¹⁾.

ومن خلال هذا الدرس، يتضح لنا أن المعلومة المعرفية المتعلقة بإحداث تغيير في نفس المتعلم قد تم تحصيلها عن طريق العلم نتيجة الإدراكين: الحسي، والمعنوي.

المنهج القرآني والبيئة:

الذي يبدو واضحاً أن المنهج القرآني قد استخدم في إبراز المعاني

(1) سورة البقرة، الآية: 72.

وتشخيصها عناصر البيئة المُحسَّنة؛ لينبّه العقل البشري إلى منافذه الكاشفة لتلك الحقائق، إنما هي الحواس كما وجهه في الوقت نفسه إلى أن مصدر المعرفة هو ما يحويه هذا الكون من علامات دالة على قدرة الله.

ويأتي «علم التربية» فيُسمَّى الكون بالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية، ثم يقرر بأن التربية إنما هي عملية تكيف بين المتعلّم والبيئة.

والتكيف إنما يُقصد منه تغيير ما في نفس المتعلّم، وذلك بتنمية مواهبه وتعديل ميوله وإصلاح سلوكه بوجه عام حتى يتلاءم مع بيئته، وتغيير ما في البيئة ليتلاءم مع حاجاته.. وعوامل هذا التغيير تتمثل في ثلاثة جوانب:

1 - الجانب التحصيلي، وهو الإمام بقدر كافي من العلوم بنوعها: الطبيعي والاجتماعي؛ ليتمكن المتعلّم من الإحاطة ببعض جوانب نفسه؛ لأن ذلك يسهّل له مهمة تكيفها بمقتضى البيئة.

2 - الجانب التطبيقي، وهو ما يُعرف بتكوين العادات والمهارات ليكتسب المتعلّم عن طريق ذلك، القدرة على مواجهة مشكلات الحياة والتغلب عليها بأسلوب يكفل له النجاح في مسيرته.

3 - الجانب الخلقي، وهو ما يتعلّق بتقويم الأخلاق، والتحليّ بالحميد من الخصال الحسنة والصفات الكريمة؛ لأنها تحفز المتصف بها إلى جليل الأعمال وطيب المعاملة، كما تربي فيه الذوق الرفيع وتصلح حسه، وترهف شعوره.

أما ما يتعلق بتغيير البيئة، طبيعية كانت أم اجتماعية، فإنه يعني تسخير ما تشتمل عليه من مواد تستخدم لنفع الإنسان وخير البشرية وتقدمها. والمنهج القرآني يدعو بالحاح إلى النظر:

﴿قُلْ نَظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْبِئُهُنَّ بِالْآيَاتِ وَالنَّذْرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (1).

(1) سورة يونس، الآية: 101.

والنظر يعني: التأمل، والتأمل هو السبيل المؤدي إلى العلم بما تحويه الأرض، وهي بيئة الإنسان. ولم يقف المنهج عندها بل نراه يتجاوزها، فيوجه الأنظار إلى ما تشتمل عليه السموات، كذلك من مصادر تزخر بألوان من المعارف مختلفة؛ فهي قد سحّرت وطوّعت ولكن لمن؟ لذوي العقول التي استخدمت وفق الأسس التربوية التي رسمها القرآن، حيث بسط أمامها مختلف الإمكانيات التي تكشف لها جملة من الحقائق الواضحة في شمولها وعمقها بغير تحديد زمني أو حصر مكاني؛ فهو لا يتقيّد بعصر معين: يضرب الأمثلة بالنماذج البشرية الخيرة؛ ليستفيد منها عبر العصور الممتدة.

وكذلك النماذج السيئة: لتكون عبرة وعِظَةً يلتبسها المتعلّم من خلال الأجيال المتعاقبة التي كرّست حياتها من أجل نصرة الحق والكفاح المستمر ضد الظلم والطغيان. أما من حيث المكان، فإن المنهج القرآني يُؤثر أن يتخذ منه نقطة لانطلاقه، ولكنه لا يقف عند حدٍّ معيّن، كالتحديد الجغرافي المعروف عندنا الآن، بل يمتد في اتساعه حتى يشمل الأرض كلها.

نجد ذلك بوضوح تام عندما اختار «مكة» محوراً فخاطب قريشاً لافتاً انتباههم إلى بعض مشكلاتهم اللصيقة بهم محلياً.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَتَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ۝ جَعَلَهُمْ نَعْفٍ مَّا كُولٍ ۝﴾ (1).

فقصة أصحاب الفيل قصة لم تكن بعيدة عن أذهانهم؛ فهي تعيش معهم وبينهم، تتناقلها ألسنتهم في مجالسهم إذ لم يمض من الزمن ما يجعلها في طي النسيان؛ فقد سبقت لتذكرهم بأهمية المكان ورفعته منزلته؛ لذا استحق العناية الإلهية كما استحق أن يكون نقطة الانطلاق وقبلة تتجه إليه الأنظار، وتهواه الأفتدة. ويمضي الدرس في تذكيرهم بمواردهم الاقتصادية وعلاقاتهم

(1) سورة الفيل، الآيات: 1-5.

بمن حولهم من المجتمعات المجاورة، ثم يوضح لهم أن الاستقرار الداخلي إنما يعتمد على دعامين أساسيتين هما: 1 - الأمن. 2 - الرخاء الاقتصادي.

﴿لَا يَلْفَ قَرْنِشٌ ۝١ إِحْكِفْهُمْ رِجْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ۝٤ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٥﴾ (1) حيث يبدأ المنهج بعد ذلك في توسيع دائرته منتقلاً إلى البيئة الاجتماعية التي تعني العلاقات القائمة بين الأفراد على اختلاف أنواعها، اقتصادية كانت أم سياسية؟ مهنية أم ثقافية؟ فيذكر قضية الصراع القائم بين الدولتين العظميين في ذلك العصر: الفرس والروم. مبيناً أن النصر سيكون في النهاية لمن يود المؤمنون نصرهم، ولكن قريشاً المشتركة لا تسرها هزيمة الفرس، بل تكره أن ترى ممن يلتقي معها في دائرة العقيدة الفاسدة قد أصابه الأذى.

والدرس يهدف إلى:

- 1 - توضيح العبرة المستنتجة من خلال الصراع في سبيل نصره العدل والحق.
- 2 - إن النصر لا يحرز بيسر وسهولة، بل يحتاج إلى الكفاح المستمر والصبر الإيجابي.
- 3 - الإيمان بأن الغالب قد يُغلب، وأن المغلوب قد يكون يوماً غالباً، وهذه حقيقة لا مرأى فيها ولا ريب. وإن علم التربية يقرر بأن معرفة مثل هذه المعلومات وتقبلها تقود المتعلم إلى معرفة نفسه؛ ليتخلص بالتالي من العقد النفسية التي تحول بينه وبين التلاؤم مع بيئته الاجتماعية.

﴿أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝١ فِي آذَنِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٢ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٣ بَنَصْرَ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٤﴾ (2).

(1) سورة قريش، الآيات: 1-5.

(2) سورة الروم، الآيات: 1-4.

المنهج القرآني والنماذج الإنسانية:

إنه حين ينتقيها إنما ينتقي ذات التجربة المفعممة بألوان الكفاح لتثبيت دعائم الخير والعدل، ثم يُركّز على عنصر التوجيه الهادف والعظة المؤثرة دون أن يخوض في التفاصيل الأخرى التي تتعلق مثلاً بتحديد المكان والوقت والاسم؛ لأن الخوض في مثل هذه الأمور قد يبعد المتعلّم عن الهدف الأساسي من الدرس، حيث يلقي به في بحر من المَلَلِ والسأم ويفقده القدرة على التركيز الذهني. ففي قصة ذي القرنين مثلٌ واضح جلي، إذ يُشتهل بالسؤال: - ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾⁽¹⁾.

ثم يمضي في إبراز المعلومة بعد الإحاطة بذكر صفات الشخصية التي اتخذت كنموذج. يلتقط العبرة مدعومة بالمقدمة التي تفيد التمكن وإمداد ذي القرنين بأسباب القوة والمنعة، وما ذلك إلا تمهيد يستثير اهتمام المتلقي ويستوقفه ليطل على عمق الحقيقة لتطالعه تفاصيلها متهياً مصغياً حيث يلتبس من رأي انتشار الفساد - من ذي القرنين - أن يعينهم على اقتلاعه. وإن هو فعل فهم مستعدون لدفع المقابل. ولكنه لفت انتباههم لفتة المعلم الحريص إلى أن الأمر يحتاج إلى القيام بعمل جماعي تظهر فيه الإرادة الشعبية في أجلى مظاهرها وأوضح معانيها:

﴿فَاعْيَنُونِي بِقُوَّةٍ﴾⁽²⁾ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُوا نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهَا قِطْرًا﴾⁽³⁾.

وقد تم الدرس بإرادة جماعية تحقق فيها مبدأ التعاون المبني على الإيثار النفسي. والاستجابة الواعية من قبل الأفراد الواثقين بحكمة القيادة التي وجهتهم إلى أن نجاح العمل إنما يتحقق بتوافر الأسس التالية:

(1) سورة الكهف، الآية: 82.

(2) سورة الكهف، الآية: 91.

(3) سورة الكهف، الآية: 92.

- 1 - نبذ المقابل المادّي فيما يتعلّق بالأعمال التي يتوقّف إنجازها على التضحية الجماعية.
- 2 - تكاثف الجماعة وتوحيد قوتهم ووقوفهم صفاً متماسكاً.
- 3 - التحام القاعدة الشعبية بالقيادة الرشيدة.
- 4 - التماس العون بمن يتوسم فيهم الأهلية للقيام بعمل يدرأ الخطر الذي يتهدّد كيان الأمة.

وهذا العمل التعاوني يسميه علم النفس الاجتماعي «سلوك المساعدة».

ومن ثم نرى أن الدافع هنا إنما هو دافع اجتماعي نتج عن شعور الجماعة بالخطر، في الوقت الذي لم تكن لديها القوة الكافية لصدد هذا الخطر؛ لذا لجأت إلى من توشمت فيه مقومات القوة فأيقنت أن إنقاذها سيكون - حتماً - على يديه وقد تحقّق فعلاً ما اعتقدته؛ فخاضت التجربة وهي على وعي تام بما زخر به الدرس من فوائد جمّة فتحت أمام الأفراد أبواب العمل النضالي في سبيل المحافظة على كيان الأمة، وحيل بينها وبين الخوف بسور من الأمن والأمان، وحصن حصين يكلاؤها من فساد «ياجوج وماجوج».

وما الخوف إلا المحرك الذي يحفز الفرد إلى البحث عن طريقة تحفظ له حياته آمنة مطمئنة.

فموسى عليه السلام حين ألقى عصاه الأليفة إليه ورآها تهتز كأنها جان تراجع هرباً وهو في موقع التجربة العملية، ولمّ الخوف؟

فالدرس قد صممت وسيلته وحُضِر من لدن رب العزة

﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾⁽¹⁾.

فموسى إذن في المحك العملي. ومن كان كذلك فإن عليه أن يسعى إلى بلوغ الهدف لا أن يقف عند مقدمات الدرس وهو قد قبل التحدي ووافق على

(1) سورة القصص، الآية: 31.

موعد اللقاء. وقد كان موعد اللقاء هذا ضحى يوم الزينة: حيث دُعي الجميع ولم تكن دعوة خاصة لحضور النتيجة التي ستتم متابعة فصولها فصلاً فصلاً، يرى الرائي بعينه في وضوح النهار حيث الشمس ساطعة والرؤية واضحة والحركة محددة.

وينتهي الدرس بفوز موسى الآمن مسجلاً انتصار الحق واندحار الباطل وإيمان السحرة برب هارون وموسى.

وإبراهيم عليه السلام، يتوجس خيفة إذ يشرفه الوفد الملائكي حاملاً إليه البشرى بمولوده الذي طالما تحرق شوقاً إلى رؤيته.

وتأتي مقدمة الدرس مشوقة ممهدة باستقبال الضيوف سلاماً وترحيباً، فقياماً بواجب الإكرام حيث يقدم العجل الحنيذ «المشوي» ويبقى الطعام لا تمتد إليه يد ويقف إبراهيم منزعجاً مضطرباً. لِمَ؟ وكيف؟ ويدرك ألا رغبة لهم في الأكل، وهو الذي يود ألا يقف مثل هذا الموقف من ضيوفه؛ فقد رحب وهش وبش وأبدى من حسن الاستقبال وجميل العبارة ما جعلهم يبادرون إلى تهدئة روعه وإزالة ما علق بنفسه من خوف.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ ۖ وَامْرَأَتُ قَايِمَةً ۚ فَضِيعَتٌ فَنَسَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَآهٖ إِسْحَاقُ يَفْقُوبُ﴾ (1).

ولوط عليه السلام يضيق ذرعاً وتنقبض نفسه بمقدم الوفد ويحس بأصابع من الحزن تعصر قلبه؛ فلم تترك له فرصة التقبل الواعي لأحداث الدرس ولم يجد الانشراح النفسي الذي يُوقظ الاستجابة، ويشير الانتباه. ففي حالة الخوف ينتاب النفس البشرية شعور ممض بمراقبة البواعث والدوافع، فتقف مشدوهة عند نقطة الرجاء والأمل ترقب متلهفة بارقة النجاة، ولعل في ذلك تمهيداً للدخول في دائرة التشويق التي بعدها الانتقال إلى مرحلة العرض حيث الاطمئنان الذي يبعث على الإيمان بقوة الله القاهرة.

(1) سورة هود، الآيتان: 69، 70.

﴿وَلَقَدْ أَنبَأْنَا لُوطًا سَعَىٰ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكْ كَاتِبًا مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (1).

ثم تأتي ملاحق الدرس التي تحمل التعليمات الموجهة المرشدة إلى معالم سبيل النجاة حيث تتم عملية الفرز، فيقدم إلى لوط عليه السلام الكشف بمن سيكونون معه في رحلة النجاة، على أن تنفذ الخطة المرسومة تكتنفها السرية والحذر.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكْ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (2).

ولقد كانت تفاصيل موضوع الدرس بوسائله المعينة مثيرة للانتباه موقظة للضمائر الحية الواعية. فجوه كان مشحوناً بالتوتر والحرص والخوف.

فلوط عليه السلام يحاول الدفاع عن ضيوفه: يوجه قومه إلى ما هو أخطر وأبقى مستخدماً وسائل التأثير النفسي

﴿يَقُومُ هَؤُلَاءِ بِنَتِيجَتِهِمْ أَظْهَرُ لَكُمْ﴾ (3).

- 1 - نداء فيه من اللطف والرقّة ما يلمس شغاف القلوب.
- 2 - إضافة تُوحي بالانتماء إلى الجماعة التي تشعرهم بالاعتزاز والفخر إن كانوا أهلاً لذلك.
- 3 - تنبيههم إلى موقع الخطأ في نفوسهم، ثم يطلب منهم العدول عن سوء ما يرتكبون من جرائم بشعة.
- 4 - ثم يتحول إلى مخاطبة العقل الراشد علّه يعثر عليه من بين المجموعة التي لا تفكر بعقلها الواعي وإنما بعقل جمعي يغيب عن وعيه في كثير من الأحيان سبيل الحق والصواب.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 33.

(2) سورة هود، الآية: 80.

(3) سورة هود، الآية: 77.

ولكن لو طأ لم يظفر بشيء من ذلك: لاطف، فذكر، فبحث فتمنى، وماذا بعد؟ إنه لم يبق من الدرس سوى مرحلته الأخيرة، فهو قد وعى الخاتمة جيداً، تلك التي حددت له وقائع المأساة مكاناً وزماناً، حيث ظلت المعلومة التي تحمل الأحداث التربوية ومضة تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما، عن طريق الحس أو التأمل وفق نوعية الظاهرة.

وداود عليه السلام يجد نفسه ذات يوم في إطار موقف تعليمي اختباري حين يقتحم عليه الخصمان خلوته فينتابه شعور بالفرع من خطر مُثَلِّ بين يديه وأنى له أن يفعل شيئاً في موقف كهذا؟

«فعلم النفس» يقول في تحليل مثل هذا الموقف: «إن مجرد الأحساس بالخطر يحشد في المرء قوة غير عادية تفوق قوته في حالة الإطمئنان». وإذا استولى الفرع على النفس اختفت الاستجابة وانعدمت الراحة.

لذا كانت مقدّمة الدرس لداود عليه السلام كمنبه للولوج في افتتاحية تقتلع من نفسه ما علق بها من أثر للفرع والاضطراب، وتبتشله من حالة الانقباض والضيق لتهيء له جوّاً من الإحساس بالراحة والاطمئنان.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَظَمْنَا بَعْنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخْمُتُنْتَابِلْ حَقٌّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهِدًا إِلَى سَوَاءٍ الصِّرَاطِ﴾ (1).

وتتلاحق حلقات الدرس تحمل في ثناياها ومضات زاخرة بملامح التشويق، ومنبهة إلى توخي الحرص الشديد على تتبّع مراحل التفكير المتأني للوصول إلى اصدار الحكم السليم المستند إلى الحيشات الخالية من التسرع والشطط، حتى يكون للدرس في تقويمه النهائي نتيجة غنية عن التعديل، غير أن من أهداف المنهج القرآني أن يضع المُربّي في دائرة الاختبار العملي حيث يتضح للنفس البشرية - إلى جانب ضعفها - جوانب السمو؛ لتسمو إلى أرقى المراتب، وتظفر في النهاية بما أعد لها من نجاح في الدنيا وفوز في الآخرة.

(1) سورة ص، الآية: 21.

ولقد خاض داود عليه السلام، هذه التجربة الحية، فتفاعل مع أحداثها ووقائعها بكل تفاصيلها، وتأثر بمواقفها الحركية ومشاهدها التي أبرزت قضية الإنسان مع أخيه الذي سمح لنفسه أن تسلك طريقة المغالبة والمحااجة استناداً إلى سلطانه وسطوته مدفوعاً بنهمه الذي لا حد له.

ويقف داود عليه السلام، محللاً نفسية الخلطاء ولم يستثن منهم سوى القلة القليلة، مبيناً أن الإيمان قد وقاها من عقدة حب الاستيلاء والسيطرة، لأن إيمانها لم يكن متقوقعاً سلبياً، ولكنه إيمان إيجابي قد تحول إلى اتجاهات وعادات صالحة وسلوكيات حميدة، وقدرات تفجر طاقات الإنسان في مجال الخير والعدل والإبداع، وتفتح أمامه سبل النجاح التي تحفز به إلى السير الحثيث لبلوغ أسمى الغايات.

ولقد أثبت «علم التربية» «أن الإنسان إنما يجد في عمله عندما يشعر بنجاحه فيه» ويمضي داود عليه السلام، في مراجعة أحداث الدرس بوعي عميق وإنابة خاشعة، حيث يحظى بالمنزلة الرفيعة التي تؤهله لأن يكون خليفة في الأرض ينهض بعبء مسؤولية القيادة الرشيدة التي لا ترى الأمور إلا بميزان الحق والعدل، ولا تصدر الحكم إلا وهي تستشعر عظمة خالقها، ولا تسير إلا وفق التحذيرات التي وجهت؛ لترسخ أسس المنهج الذي اختص بواقعيته، فهو لا يقدم مبادئ نظرية ولا توجيهات مجردة، ولكنه يطبق ويمارس ويدرب ويتناول موضوع الدرس بالتحليل الدقيق العميق لكل الأسباب والنتائج، ثم ينتقل إلى التعقيب؛ ليكشف الأثر النفسي حيث يعرضه في وضوح تام ليطمئن على أن الحقيقة قد تمكنت من نفس المتعلم واستقرت في جو من الرضا والقبول.

ويقف داود عليه السلام، مرة أخرى، فيجد نفسه أمام قضية لا تختلف في سماتها العامة عن القضية الأولى إلا في بعض ملامحها وظروفها من حيث العرض وتنوع الأسباب:

نعاج في الأولى... وغنم في الثانية.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي النِّحْرَةِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِمَ الْهَمَّةُ الْقَوْمُ
وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۖ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَاءَ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا
وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۗ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ
لَكُمْ لِيُخَصِّصَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (1).

ولم يؤكد التمهيد للدرس هذه المرة على الإثارة بالمفاجأة كالدرس السابق، ولكن الإثارة قد تعلقت بذات إصدار الحكم في أثناء المداولة لحديثاته، حيث تولى الابن سليمان القيام بمهمة التعديل الذي لقي القبول من المتخصصين والرضا من الأب داود عليه السلام.

إذن، فدراسة القضية قد تناولت أموراً جوهرية تتعلق بروح الحكم من حيث التفاصيل الدقيقة التي ألهمها سليمان فبادر إلى التوجيه والتعديل؛ لتكتمل معالم الدرس بجوانبها المتناسكة ولبناتها المترابطة، لينتقل الدرس بعدئذ إلى نوع آخر من التعليم.

صنعة تُنتقى ليتعلمها داود عليه السلام؛ إنها تتلاءم مع حاجة المجتمع الدفاعية التي يقف بها سداً منيعاً ضد أي اعتداء خارجي.

فالحديد قد لين وطوع، وهذا يحفزه إلى مضاعفة الجهد والمزيد من الدقة لتكون الصنعة محكمة متقنة، وتكون خاتمة الدرس باعثة على الشكر والطاعة لتتحد القوتان: المادية والمعنوية معاً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنْهَا مِثْقَالَ حَبَّةٍ أَوْبِيَّةٍ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۖ آتَيْنَاهُ سُلَيْمَانَ وَكَانَ فِي الشَّجَرِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (2).

ونوح عليه السلام، يبذل قصارى جهده في صنع سفينته لتخرج في أروع صورة من الجودة والاتقان بالرغم من سخرية قومه؛ فلم تزده إلا إصراراً وقوة.

(1) سورة الأنبياء، الآيات: 77-79.

(2) سورة سبأ، الآيتان: 10، 11.

فقد ظل يعالج أخشابه ودرسه ويدفع عن نفسه السأم والملل لأنه يدرك أن الهدف واضح، وأن عين الله ترعاه، وأن الذي يبدأ الخطوة الأولى ويعي مقدمة الدرس فلا ينبغي له أن يقف قبل الظفر بالنتيجة ويعلم علم اليقين أن الله قادر على أن يرسل إليه السفينة مهيأة متقنة الصنع جيدة الألواح والدرس تستقبل ركابها لتمخر بهم عباب البحر يحدوهم الأمن وتكلأهم عناية الله، ولكن حكمته اقتضت أن يكون نوح عليه السلام، القدوة العملية التي تقتديها الأجيال المتعاقبة عملاً وكفاحاً ونضالاً وصبراً وعزيمة صادقة وإرادة ماضية لا تلين ولا تنهن.

فالإرادة كما يقرر علم النفس تمر بأربع خطوات:

- 1 - الشعور بالغرض بمعنى أن الغرض من العمل يكون حاضراً أمام الذهن المريد.
 - 2 - الروية، والروية تعني: التأنّي، وتمحيص الآراء المختلفة والبحث عن البواعث التي تتجاذب صاحبها، كالميلول والرغبات والعواطف التي تمتاز بالشخص وتجذب به إلى القيام بعمل معين.
 - 3 - العزم، وهو الاستقرار عند رأي من الآراء التي تحتوي الغرض المراد.
 - 4 - ثم تأتي الخطوة الأخيرة، وهي مرحلة البدء في تنفيذ العمل، وقد تعترض عملية التنفيذ عقبات تقف في سبيل إتمام المرحلة النهائية للعمل. غير أن صدق الإرادة كفيل بالتغلب على كل مشط ومشوش ومخذل.
- ﴿وَاصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾³⁷
 وَيَصْنَعِ الْفُلَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ³⁸ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْدِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ⁽¹⁾.

ما احتوته الآيات الكريمة يمكن إبرازه فيما يلي:

(1) سورة هود، الآيات 37-39.

- 1 - إن نوحاً عليه السلام، قد مرّ بمراحل الدرس مروراً عملياً متأنياً مكنه من استيعاب تفاصيله مترابطة مرتبة.
- 2 - التهيئة للدرس كانت توجيهاً مباشراً إلى ما يقتضي سرعة التنفيذ الحركي بما يشتمل عليه من استعداد وفق الإمكانيات البيئية المتاحة.
- 3 - التعبير بكلمة «اصنع» تشير إشارة واضحة إلى تحري الدقة المتناهية فيما يعالجه الصانع وهو يتعامل مع الأدوات من حيث الضبط والانتقاء والاستيعاب.
- 4 - توجيه نوح عليه السلام، إلى تركيز ذهنه فيما طلب منه القيام بتنفيذه؛ لصرفه عن قضية أصبح التفكير فيها أمراً مفروغاً منه؛ لأن نهاية الظالمين ظلت وشيكة الوقوع.
- إذن، فلا ينبغي لنوح إلا أن يجدد ويكده؛ لتحمل الجارية حصيلة دعوته - في ألف سنة إلا خمسين عاماً - وهي تجري بالقلة المؤمنة في موج كالجبال في رحلة النجاة تلك.

الرحلة العلمية:

ويصطحب موسى عليه السلام، فتاه قاصدين مجمع البحرين حتى إذا بلغا الصخرة توقفا عن السير يلتصقان الراحة، ثم يستأنفان الرحلة الشاقة المضنية. ويطلب موسى من فتاه أن يناوله شيئاً من الطعام، ولكن الفتى يفاجأ بأنه قد نسي الزاد إلى جانب الصخرة تلك. والزاد كان حوتاً، والحوت قد دبّت فيه الحياة حيث بقي فاتخذ سبيله في البحر سرباً.

ويرتد موسى وفتاه. وفي طريق العودة يجدان العبد الصالح. ويعرض موسى عليه أن يقبل رفقته في رحلة العلم. وينبهه المعلم إلى أن الدرس صعب، وأن استيعابه ليحتاج إلى الصبر والطاعة والمعاناة.

ورغم ذلك، فإن موسى يقبل مدفوعاً بدافع الرغبة الملحة في طلب العلم.

ثم تبدأ نقطة الانطلاق، ركوب السفينة حيث يتم خرقها من قبل المعلم، ويسأل موسى متعجباً مستغرباً. ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرَأً﴾ (1) تنبيه، فاعتذار، فقبول. وتستمر الرحلة ويتم خلالها قتل غلام لم يقترب ذنباً: وينفذ صبر موسى فيعود إلى السؤال:

﴿قَالَ أَقْتَلْتُ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكَرًا﴾ (2)

ثم يتكرر لفت النظر. ويقطع موسى على نفسه وعداً، إن هو عاد، فلا حق له في المصاحبة.

وتُستأنف الرحلة: «3» ويدخلان إحدى القرى والرحلة شاقّة ولا زاد. فيلتسمان من أهلها طعاماً، ولكن الأهل يرفضون، وهنا يبرز دور المعلم فيقابل هذا الرفض بإقامة الجدار الذي يريد أن ينقض.

ويعود موسى وصبره نافذ: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتُ لَتَنَزَّلْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (3).

ويقف المعلم معلناً نهاية الصبح، ولكنه لم يأذن للمتعلم أن ينصرف قبل أن يفقه المعلومة التي كان يود بحرقه استعجال فهمها واستكشاف حقيقتها:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (4) وَأَمَّا الْفُلُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَأَخْبَيْنَا أَنْ يَرَاهُمَا طَغْيَانًا وَكُفْرًا (5) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّنَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا (6) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (4).

(1) سورة الكهف، الآية: 70.

(2) سورة الكهف، الآية: 73.

(3) سورة الكهف، الآية: 76.

(4) سورة الكهف، الآيات: 78-81.

والدرس هنا تَضَمَّن:

- 1 - كشفاً عن حقائق لم يكن موسى عليه السلام يدرك لها سرّاً.
- 2 - لقد تمّ كشفها عن طريق الوسيلة المعينة التي اتصلت حلقاتها بصورة عملية.
- 3 - إن الأحداث لم تُسرد سرداً تاريخيّاً، بل عرضت في قالب محدد للمعاني والدلائل؛ ليلتقط المتعلّم من تفاصيلها القيم الكامنة وراء الحوادث التي ترسم سمات النفوس وخلجات القلوب، وتصور الجو الذي يصاحبها.
- 4 - إن الأحداث تزخر بالحركة الحيّة المشوّقة الرامية إلى إبراز الأسس التي تقام عليها بنية النظام التربوي من حيث تحديد الإطار العام الذي يضع ملامح الصفات الواجب توافرها فيمن يلتبس العلم: كالطاعة التي تعتبر من أهم الفضائل الأساسية لإعداده إعداداً يمكنه من أن يكون واثقاً بنفسه، واعياً منسجماً مع من يتولى توجيهه الوجهة السليمة الراشدة.
- 5 - الصبر، وهو الصفة الضرورية التي يجب أن يتحلّى بها من يريد أن يسلك طريق العلم والمعرفة، لذلك كان أول شرط اشترطه العبد الصالح حينما التمس منه موسى عليه السلام أن يأذن له في صحبته ليتعلم منه.
- 6 - طريق العلم طريق شاق عسير؛ فلا يناله إلا من كان ذا إرادة قوية وعزيمة صادقة.

فموسى عليه السلام، مضى مصمماً رغم ما لقيه من مشقة وعنت حتى حقّق هدفه وبلغ غايته.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (1).

(1) سورة الكهف، الآية: 59.

7 - وفي أثناء الدرس نجد المعلم يكثر من تنبيه المتعلم ألا يقاطعه بالسؤال قبل استيفاء المعلومة.

﴿قَالَ فَإِنْ ابْتَغَيْتَ فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾⁽¹⁾.

8 - إن للصحة أثراً عميقاً في نفس المتعلم من حيث تأثيرها بالجوانب العملية التي تتشربها عن طريق القدوة الصالحة سلوكاً حسناً، وتوجيهاً راشداً، وكذلك العكس قد يحدث. والمنهج القرآني يوضح هذه الحقيقة إذ يوبّخ المؤمنين ويقرعهم وينكر عليهم عدم مطابقة الفعل للقول ليبين لهم أن الجانب النظري لا ثمرة له إلا إذا دعمه العمل حيث تتم مرحلة التطبيق:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ ۝١ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ۖ كَانَهُمْ بُنَيَانٌ مُرْضُوعُونَ ۚ﴾⁽²⁾.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد وردت في معرض الحديث عن فريضة الجهاد؛ فإنها بالضرورة تهدف إلى:

1 - نبذ هذه الصفة السلبية في شتى مجالات الحياة، وبخاصة في ميدان التعليم والتربية.

2 - إقتلاعها من نفوس المؤمنين؛ فهي لا تلتقي مع حقيقة المؤمن الكامل؛ لذا عرضت في قالب منفر وصورّت بصورة بشعة ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾⁽³⁾ وعند من؟ «عند الله».

3 - ولأن الدرس درس جهاد؛ فإنه جدير بأن يكون منطلقاً تتفرّع من قاعدته الأسس التي تنهض ببنية التعليم؛ لتثمر معرفة واعية وعملاً صالحاً.

(1) سورة الكهف، الآية: 69.

(2) سورة الصف، الآيات: 4-2.

(3) سورة غافر، الآية: 35.

4 - إن خاتمة الدرس. برزت في صورة حية تجسّدت فيها الحركة العملية بكل عناصرها: محبة الله. لمن؟ للذين يقاتلون في سبيل من؟ في سبيل الله. وقد حددت كيفية القتال في ميدانها مضبوطة بقانونها الحركي الذي لا ثغرة فيه ولا وهن؛ لأن من أجل إعلاء كلمة الله وترسيخ عقيدة التوحيد ونصرة الحق. وَلِيْلِفَتْ انتباهنا التعبير بالفعل «يقاتلون» إنه لذو دلالة دقيقة عميقة على إحياء الموقف قتال، واستحضار صورته في الذهن وتكرّره عبر الزمان والمكان.

5 - لقد احتوت الخاتمة أيضاً إشارات ذات وميض يكشف عن مختلف التوجيهات في مجال العلوم العسكرية من حيث الاستعداد والترتيب والتنسيق والتماسك التي تتولّد عنه القوة الصامدة الكاسحة؛ والتزام الصديق في التخطيط والتنفيذ: قل فاعمل، أو اعمل ودع ليتحدث العمل.

﴿وَقُلْ اِعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾⁽¹⁾

فالعمل يشاهده الكثيرون؛ لأنه ملموس محسّ يجذب أولي الأبصار كما قال الإمام الغزالي في شأن وظيفة المعلم: - «أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله؛ لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد»⁽²⁾.

التربية بالقدوة:

إن مجال التربية بالقدوة مجال واسع؛ فقد أشبعه علماء التربية بحثاً على الصعيد النظري، كما دلت التجارب الحية على أن تهذيب السلوك بالأعمال خير سبيل لتحقيق الأهداف النبيلة؛ لأن النفس البشرية جبلت على حب التقليد.

(1) سورة التوبة، الآية: 106.

(2) إحياء علوم الدين، ج 1، ص 85.

ولقد ذهب علم النفس في تعليله لذلك إلى أن التقليد ينتج عن طبيعة الانقياد لمن يراه المقلد أعظم منه شخصية في أي جانب من جوانب التفوق، أو ربما يرجع إلى قانون الاقتصاد في الجهد: بمعنى أن يصل الإنسان إلى قناعة أن أحداً قد سبقه إلى التفكير في الرأي ليأخذ هو خلاصته.

غير أن دافع الانقياد قد يكون الحب، وقد يكون الخوف. وليست القدوة كذلك؛ فإن باعثها إنما هو الحب والاحترام فلم تكن العلاقة بين المقتدي والمقتدى علاقة استعلاء وتسلط وقهر فكري أو مادي، ولكنها اقتداء واقتفاء لخطوات راشدة وسيرة حميدة، واستقامة واعية.

ولقد أمر نبينا صلوات الله عليه بأن يقتدي بالأنبياء السابقين في أخلاقهم الحميدة، وشيمهم الرفيعة. يقتدي بهم في عاطر سيرتهم، وصبرهم على الأذى في سبيل نشر الدعوة؛ فكانت حصيلة الدرس الإلهي زاخرة بالمناقب والفضائل التي تحلّى بها رسولنا الكريم صلوات الله عليه، حيث جمع ما كان مجتمعاً فيهم من صفات الكمال وحميد الخصال فنال باستيعابه الدرس التطبيقي أعظم شهادة وأسمى جائزة، فلا جرم أن كان خاتم الأنبياء والمرسلين.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (1) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ۖ إِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۖ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيَهْدِيهِمْ ۖ أَفْتَدِيَهُمْ ۖ قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ ۖ أَخْرَأَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يَذْكُرُوا لِلْعَالَمِينَ﴾ (2).

فدعائم الدرس ثلاث: الكتاب، والحكم، والنبوءة. ورغم ما تشتمل عليه هذه الدعائم من وضوح؛ فقد قُوِّلت بالجحود والنكران ممن لم يع الدرس.

(1) سورة القلم، الآية: 4.

(2) سورة الأنعام، الآيتان: 90، 91.

وفي المقابل، وُجد من شرح الله صدره للإيمان فاستجاب لدعوة الخير والحق وعمل ببرها وإحسانها.

فالقُدوة إذن، كانت من أهم الركائز التربوية التي انتظمها المنهج القرآني منذ التمهيد الأول لبدء الدعوة؛ وإذا كان رسولنا عليه السلام، قد أمر بالاعتداء من قبل من اختاره واصطفاه؛ فإن أتباعه كذلك دعوا إلى اتخاذه أسوة يتأسسون بها في كل شؤون حياتهم الخاصة والعامة في تكامل لا يقبل التجزئة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَآءَ لَا خِرَ وَكَرَّ اللَّهُ كَثِيرًا﴾⁽¹⁾.

وإنه ل يبدو من خلال الدرس أن الأسوة قد وصفت بأنها حسنة، كما أنها وردت بصيغة النكرة.

فالتنكير يمنحها سعة وشمولية مطلقة حيث ينفسح مجال التأسي للذين يضعون نصب أعينهم جزاء الله ولا ينقطعون عن ذكره.

أما الأحسنية فإنه من ثم يتضح أن الأسوة التربوية إنما تثمر في ميدانها بشرطين:

1 - التكامل الموضوعي.

2 - والادراك الواعي الذي يرشد إلى التمييز الصادر عن قناعة مختارة.

وإذا فقد شرط؛ فإن الاتزان ينعدم حيث ينساق المتأسسي بهواه إلى أخذ ما يروق وترك ما لا يقع في دائرة مزاجه، عندئذ يجد نفسه، إما أن ينفر من المتأسسي نهائياً وإما أن يبقى منجذباً نافرأ معاً. وفي هذه الحالة يتولد صراع نفسي طاغ يذيب اتزان الشخصية فتحيا مسلوقة الوعي عديمة القدرة على رؤية الأشياء على حقيقتها، وبذلك تدخل في مرحلة الوهم الخادع، ويقف استخدام العقل حيث يبرز اختيار القدوة السيئة عن عمى وضلال.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 21.

والقرآن الكريم يلفتنا إلى حقيقة أولئك الذين اقتفوا نهج آبائهم الضال المنحرف:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا
ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾⁽¹⁾.

محتوى الدرس: قرية، نذير مترفون، آباء، قدوة سيئة، فالقرية أهلة بالسكان، منهم المترف ومنهم غير ذلك. والمترف: المنعم الذي يدفعه ترفه إلى البغي والطغيان.

ثم يرسل النذير ليتولّى القيام بمهمة الدعوة إلى التوحيد وطريق الحق وتقويم المعوج، وتصويب ما وقر في الأذهان من خطأ.

ويستجيب من تمسّ قلبه يد الهداية، ويبقى المترفون. أمّا هم فإنهم - في أغلب الأحيان - رافضون؛ لماذا؟ لأن الغنى قد أعماهم عن طريق الحق فأنسأهم أن للكون إلهاً، واستلب من نفوسهم أداة التدبير والتمييز. لقد عميت أبصارهم وصمت آذانهم فلم يعودوا يشعرون بالقدوة الطيبة التي كانت تحيا بين صفوفهم، تذكّرهم وتندّرهم وتقدم لهم العبرة، وتضع بين أيديهم العظة الحية التي تحزّ ضمائرهم المميّنة ولكنهم لا يحسّون؛ إنهم يلتفتون إلى الخلف، إلى الوراء، إلى الماضي المظلم يتلمّسون من بين حناياه المتداعية أسوأ قدوة، فيعز عليهم أن يتخلّصوا من ضلال آبائهم.

﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾⁽²⁾.

وابراهيم عليه السلام، يبدأ درسه ممهّداً لافتاً نظر أبيه وقومه إلى الخطأ الذي كان يمارس، ولكنه لم يقف ليبحث عن عنصر الإثارة والتشويق، وإنما يدخل مباشرة في عرض تفاصيل الدرس منكرراً رافضاً أشد ما يكون الرفض

(1) سورة الزخرف، الآية: 22.

(2) سورة الزخرف، الآية: 22.

حيث يصب سؤاله دفعة واحدة؛ ليهزّ ضمائر القوم ويحرك عقولهم لتصحو من نومها العميق.

إنه يعمد إلى تحقير تماثيلهم؛ لينبّههم إلى أن عكوفهم عليها خطأ فادح، وخطر يجزّهم إلى الهاوية. فلمن إذن هم عاكفون؟

لصنع أيديهم: ثم تمتدّ تلك الأيدي الصانعة نفسها لتلمس من المصنوع العون وتتوسّل خاضعة وتجتو عند أقدام ذلك التمثال الأبله ضارعة تمنحه القرابين؛ لأنه معبودها. ولأن الآباء كانوا عابدين:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدًا مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِعِلْمَيْنَ ۝٥٤ إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمُهُ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝٥٥ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝٥٦ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٥٧﴾^(١).

تتكرر الاجابة التي تستند على اتخاذ الآباء قدوة سيئة للانحراف: الاقتداء، الاهتداء، العبادة.

وقد نتج عن التكرار تأصل هذا الانحراف حتى ظل عادة. «وعلم النفس» يقول: إن التكرار هو العامل الأساسي في تكوين العادة، كما أن للإيحاء والمحاكاة أثراً بالغاً في توجيهها، وأن العمل الآلي يؤدي - مع الديمومة - إلى الميل النفسي حيث تتحكم العادة بعنصرها وتسيطر، فتنتلق الدوافع في غفلة من الضوابط الإرادية، عندئذ يسهل الانقياد ويغيب الانتخاب العاقل لفرز الألوان والأشياء معاً.

وإبراهيم عليه السلام، يسوؤه أن يرى أباه يتّجه إلى صنم يعبد، ويأسف أشد الأسف فيخاطبه بعبارة تقطر عذوبة ورقة وتحمل توجيهاً راشداً ليلاً حياً لعله يصل بذلك إلى أعماق نفسه فتوقظ فيه عاطفة الأبوة الواعية.

(1) سورة الأنبياء، الآيات: 51-54.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ۚ يَا أَبَتِ إِنَّهُ قَدْ جَاءَنِي مِنَ اللَّهِ عَلِيمٌ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ۚ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ۚ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ۖ﴾ (1).

فالأب يصبح تلميذاً؛ لأنه لم يظفر بشيء من علم. أما الابن فقد مُنح علماً يؤهله لأن يكون معلماً.

وكيف يكون الأب لابنه تابعاً؟ فقد عزّ على الأب ذلك، فالتبعية بهذه الصورة لا يروقها عرف المجتمع. فلو صدر الأمر من الأب لابنه بالاتباع - كابن نوح عليه السلام - لكان ذلك مستساغاً لدى من يقيس الأمور بمقاييس البشر.

هناك ابن عصي وهنا أب يكون من العصاة الضالين. ومن ثم أثر الأب موقف الرافضين المعاندين. فهتّد وتوعّد قائلاً: ﴿يا إبراهيم...﴾ ولم يقل يا بني. كما قال نوح يا بني إركب معنا.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ هَٰؤُلَاءِ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا تَنَزَّلَتْ لَازِحَتِكَ وَأَخْرَجَ مَلِيّاً ۚ﴾ (2).

وتنتهي الحلقة الأولى من الدرس في جزئه النظري. وقد كانت طريقة المقدمة حوارية تميّزت بالملاطفة والملاينة. لقد سلك إبراهيم عليه السلام هذا المسلك؛ ليقيم الحجة الكاشفة لتفاصيل الحقيقة الهادية بكل رفق إلى طريق العدل والحق.

إنه اتخذ أباه نقطة الانطلاق بداية لخطوته الأولى في دعوته ليكون ذلك أدعى إلى استمالة الآخرين وأجدى لتوطيد أركان بناء الدعوة؛ ولما لم يحرز

(1) سورة مريم، الآيات: 41-44.

(2) سورة مريم، الآية: 45.

تقدماً - وهو ماضٍ - فقد رأى أن يتحوّل إلى الحلقة الثانية من الدرس العملي - مرحلة التنفيذ. والمواجهة التي تسقط من حسابها ملامح الرقة والملاطفة ولا تعترف بالملاينة كعنصر في تركيبة المنهج، وإنما تتّجه مباشرة إلى الصرامة والحزم مضياً نحو تحقيق الهدف بغير توقف ولا وهن. ولم يغيب عن ذهن إبراهيم وهو مقدم على هذه المرحلة ما سيواجهه به من ردود الفعل التي قد تكون أشد وأعنف مما يتصور، إنهم قوم نشأ بينهم ف عرف مدى تمسّكهم بالهتهم الباطلة. فعليه إذن أن يحدد وقت التنفيذ حذراً، فالحذر مطلوب في مثل هذه الظروف.

ويمضي فيختار لتنفيذ قراره يوم العيد، وكان يوماً يخرج القوم فيه إلى حيث الطبيعة الساحرة برقة نسيمها وطيب هوائها، ولم يبق إبراهيم عليه السلام، حيث التماثيل من البداية معتذراً، ولكنه خرج، وفي أثناء الطريق أبدى للقوم عذره:

﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَتِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَزَاحَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَزَاحَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾⁽¹⁾.

ويتم تنفيذ العملية بكل إتقان ودقة: أصنام تتحطم جذاذاً، وتماثيل تهوي كما هوت بعد ذلك في ساحة «مكة» حينما ﴿جَاءَ النُّحُوتُ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾⁽²⁾.

وماذا بعد؟ أيقف القوم يشاهدون آلهتهم أشلاء ممزقة، بل قطعاً متناثرة، دون أن يحركوا ساكناً، أو يسكنوا متحرّكاً؟ أم أنهم يثورون لكرامة تلك الآلهة التي ديسست فينتقمون ممن فعل بهم سوءاً؟

(1) سورة الصافات، الآيات: 88-93.

(2) سورة الإسراء، الآية: 81.

وماذا توقع إبراهيم عليه السلام؟ وهل كان يملك شيئاً من وسائل الدفاع إن هو اتهم في هذه القضية؟ قضية الصراع بين الحق والباطل، قوم وقفوا يداً واحدة يناصرون الباطل ويتعاونون على الإثم والعدوان. وإبراهيم عليه السلام، يقف وحده صامداً، فيثبت في صلابة وقوة مهما عظمت التضحية وغلا الثمن.

المحاكمة

وتبقى آثار الدرس العملي قطعاً من الحجارة متناثرة مبثوثة هنا وهناك تكسو أرض الآلهة حيث كانوا رابضين، يراها القوم إذ يرجعون من يوم زينتهم فيهلهم المنظر البشع: آلهة محطمة. كيف؟! ولماذا لا تدفع عن نفسها الأذى؟

ومن ذا الذي فعل بها ما يُرى؟

أسئلة حائرة تنطلق من أفواه القوم في جو مشحون بالحيرة والاضطراب، وفجأة يبرز من يدلّهم على أول خيط من خيوط القضية، فيخبر القوم الحيارى بأنه سمع فتى يذكرهم يقال له إبراهيم.

فالجاني إذن قد عرف في نظرهم. وبذلك تتحدّد عناصر القضية. فلتعقد المحكمة وليدع شهود الإثبات والقوم حضور.

﴿فَأْتَوَيْنَاهُ عَلَىٰ أَغْيَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾⁽¹⁾.

ويمثل الذي حمل دعوة الحق أمام المحكمة «محكمة الزيف» لتوجه إليه الأسئلة ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ﴾⁽²⁾.

ويلجأ إبراهيم إلى الإجابة الذكية البارة، فيحيلهم على كبير آلهتهم ليسألوه، فما دام قد وُصف بالألوهية فإنهم حتماً - سيجدون عنده الخبر اليقين. غير أن الإجابة كانت كالضوء الأحمر أوقفت القوم فبعثت في نفوسهم بصيصاً من الحقيقة سرعان ما انطمس أمام جبروت الجحود والنكران. ولما

(1) سورة الأنبياء، الآيتان: 61.

(2) سورة الأنبياء، الآيتان: 62.

وجدوا أنفسهم في قبضة الحجة الدامغة التي يتعذر الفكك منها لجأوا الى العناد والمكابرة، فنكسوا على رؤوسهم. ومما زاد عتوهم تمادياً صمود إبراهيم في موقفه وتسفيه عقولهم وتحقير آلهتهم:

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا يَنْزَكُونِ بُرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ (١).

ويدق الجرس معلناً نهاية الدرس بقسميه: النظري والعملي فكانت النار برداً وسلاماً تحولت لفحات لهيبها نسيماً عليلاً منعشاً لطيفاً، وباء حكم القوم بالفشل الذريع وسلم إبراهيم من كل سوء، فهو صاحب العجل الحنيد، وصاحب الطير، وصاحب النظرة المتأمل في الكواكب والقمر والشمس، وصاحب المحاجة مع من أوتي الملك والقوة المادية. إنه الأسوة الطيبة لمن أراد التأسي في الكفاح والصبر والنضال والثبات.

﴿فَذَكَاتُ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ (٢).

ويمتحن ابراهيم في ابنه اسماعيل كما ابتلي من قبل بعصيان أبيه. ولكن الدرس مختلف اختلافاً جوهرياً: تمرد وتهديد، وطاعة وامتنال:

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ (٣) ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ...﴾ (٤).

مواقف متناقضة ودرس عملي تطبيقي خاض تجربتها إبراهيم عليه السلام، فعاش أحداثها وتفاعل مع مشاهدتها زماناً ومكاناً، فكانت حصيلة مما

(1) سورة الأنبياء، الآيات: 66-68.

(2) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(3) سورة مريم، الآية: 42.

(4) سورة الصافات، الآية: 102.

استوعب صفوة السمات التي هيأته فيهما بعد أن يكون ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا
وَلَا يَكُ مِنَ الشَّاكِكِينَ﴾ (1).

ولم يك ممن حادوا عن المنهج القرآني؛ فهو قد كان حريصاً على التقيد
الدقيق بتعاليمه في عرضه لأفكار الدرس ملتزماً بتهيئة الجو الحوارى الذي
يجمع بين طريقتين: الاستقراء والاستنتاج.

ففي درسه العملي مع ابنه إسماعيل نراه يطلعه على التفاصيل الدقيقة
ويطرح أمامه القضية عارية صريحة ليستوضح رأيه صريحاً عارياً. مكاشفة تربوية
بين الأب وابنه في مجال التضحية والفداء والطاعة والامثال.

إنها النماذج الخيرة والقذوة الصالحة. ابن يؤخذ رأيه. فيم؟ في أن يمد
عنقه للمديّة الحادة طائعاً مختاراً.

إنها الصورة المنامية يرسمها إبراهيم كما يراها، في إطار نابض بالحركة
المؤلّمة المحزنة ذابح وذبيح ضجيع، فكأن الحركات المتداخلة والعواطف
الحزينة المكبوتة التي تكاد تتفجر ماثلة أمام المشاهد ﴿أنى أذبحك...﴾.
وإبراهيم يقدم ليتم حلقات التجربة العملية في ساحة الامتحان العسير.

وفي الدقائق الحرجة حيث لم يبق سوى ثوان على اللمسة الأخيرة تخطها
ريشة المأساة الدامية، يصدر النداء الإلهي معلناً نتيجة نجاح إبراهيم عليه
السلام، حيث يظهر بجزاء المحسنين والإيمان والبشارة والسلام.

وينجو إسماعيل عليه السلام، بعنقه من شر تلك المديّة الحادة؛ لتبقى سنة
الفداء بالذبح العظيم خالدة على مدى تعاقب الأجيال.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَنَا فِي مَقَامِ آتِي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى
قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٥﴾ فَلَمَّا أَكْمَلُوا نَحْلَهُ وَكُلُوا وَشَابُوا وَنَادَيْتَهُ

(1) سورة النحل، الآية: 120.

أَنْ يَأْبَاهِيمَ ﴿١٠٧﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّا هَذَا آلِهَمُ
الْبَنَاتِ وَالْمَيِّتِ ﴿١٠٩﴾ وَقَدَيْتَ لَهُ يَدْنِي عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ (١).

أنشودة العمل:

يواصل إبراهيم عليه السلام عرض دروسه العملية. ففي دروسه السابقة كان اهتمامه منصباً على البحث عن سبل العلاج للنفس البشرية في مختلف اتجاهاتها. أما درسه هذه المرة، فقد انحصر في دائرة التعامل مع حجارة صماء لا ترى ولا تسمع ولا تحس ولا تشعر، تستقر حيث تُوضع، وتثبت حيث تُلقى. إنه يقتنيها لتلتئم في صفّها مع لبناتها الأخريات ليقيم الجدار وتُرسخ قواعده. لا كالمرة الأولى يحطمها لتبقى جذاذا متناثرة.

تلك آلهة اتُخذت، وهذه نقية طاهرة اصطُفيت. يقيم إبراهيم وإسماعيل منها قواعد البيت العتيق، ذلك الذي سيبقى مثابة للناس، وأمناً خالداً على مدى الدهر. إن إبراهيم في درسه هذا لم ينتق طريقة الحوار ولم يسلك طريقة الإلقاء، وليس بحاجة إلى الوسائل المُعَيَّنَةِ أو ما يدعو إلى التشويق والإثارة، ولكنه يبحث عما يوقظ فيه الحيوية والنشاط، ينقب عمّا يمدّه بالقوة التي تُعِينُهُ على حمل الحجارة لتستقرّ في مكانها. ويرتفع الصوت تُردّد صدها حنايا ذلك الوادي السحيق:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

أنشودة العمل التي ينبغي أن تردّد صداها جنبات المصنع والحقل، وأن ترتفع بها حناجر المنتجين في كل مكان، وأن يعلو بها صوت الجنود في معارك الفداء.

إنها استحضار لتلك الصورة الرائعة: حجر يوضع ليكون جداراً من الإيمان، جهود تُبذل امتثالاً لأمر الله، أشعة شمس محرقة لاسعة، عرق يتصبّب.

(1) سورة الصافات، الآيات: 102-107.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥٠ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥١ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٥٢﴾ (1).

ويتم إبراهيم عليه السلام، كلماته التي اختير بها، فيصبح باستيعابه تلك الأوامر والنواهي إماماً للناس، ولكنه باستحقاقه هذه الصفة لم ينس ذريته، إلا أنه يتلقى المعلومة التي توضح له أن الإمامة لا ينالها إلا من توافرت فيه الأهلية، التي اكتملت مقوماتها في إبراهيم منذ نشأته وتربيته في أحضان المدرسة الإلهية فقد تحلت شخصيته بتلك المبادئ:

- 1 - ضبط النفس في حالتي السرور والحزن.
 - 2 - كمال الأخلاق العظيمة وصفاء الروح.
 - 3 - الاستقامة الإنسانية التي تتضمن مختلف جوانب الحياة.
 - 4 - صلاح العمل الذي يصبو الرشد الإنساني في أجلى معانيه ويُجسد النضج البشري في أرقى كمال.
- ﴿وَإِذْ يَبْتَلِي إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَهِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (2).

ويوسف عليه السلام، يخوض التجربة المريرة منذ حادثة سنّه، فيعرض للاختبار القاسي نتيجة الغيرة التي تحولت في تطورها إلى حسد مدمر امتدت ألسنته فالتهمت قلوب الإخوة فاندفعوا يكيدون، ويدبّرون ويتآمرون، ويضمرون سوء. ويبدأ الدرس بالرؤيا المنامية كتمهيد للأحداث التي ستلاحق وتتوالى.

(1) سورة البقرة، الآيات: 126-128.

(1) سورة البقرة، الآية: 123.

وليست الرؤيا هذه كذلك. رؤيا أبيه إبراهيم عليه السلام، لا ذبح فيها ولا دماء، ولكنها كوكب وشمس وقمر وسجود.

ويحرص الأب منبهاً ابنه على ألا يذيع لرؤياه سرّاً. ولكن الإخوة يعقدون اجتماعاً ليناقدوا فيه جدول الأعمال الذي يتضمن قضية التخلص من يوسف. فهم قد أجمعوا على المبدأ ولكنهم اختلفوا على الكيفية. من الإخوة من رأى التصفية الجسدية أو طرحه «إبعاده في أرض مهلكة». ومنهم من ذهب إلى أن إلقاءه في غيابات الجب أمر قد تلتقي حوله الآراء، وفعلاً، ووفقاً عليه بارتياح. غير أن ما استجد من عمل قد بقي، هو اقناع أبيهم على أن يرسل معهم يوسف؛ ليقضي يوماً طيباً في لعب ومرح حتى يتم تنفيذ العملية.

ثم وعدوه بأنهم سيحافظون عليه، وذكروه بأنهم أقوياء، فلا يمكن أن يعتدي ذئب عليه.

والإخوة قد صرّحوا بالدافع النفسي الذي ألجأهم إلى ارتكاب ما فعلوه، هو أن أباهم قد خصّ يوسف وأخاه بحبٍ حيث لم يعد لأحد مكان في قلبه سواهما.

وعلم النفس الاجتماعي يقرر بأن الإنسان يشعر بانفعال الحسد لمن يمتاز عليه بأي ميزة في أي مجال من مجالات الحياة.

الذئب البريء:

ويدخل الذئب كعنصر في القضية، حيث تُلصق به تهمة الاعتداء على يوسف وتُلق الفِريّة بإحكام، ويجيء الإخوة عشاءً يكون، أو يتباكون، حيث يبقى الغلام في جبهه مُلقى. ويستقبل الأب الخبر وهو يدرك بأن ما توقعه قد حدث، ويرى الدليل الملقق بين يديه: قميص يوسف عليه قطرات من دم كذب. وهكذا بعد مضي فترة من الزمن سيكون القميص الممزق من دبر دليلاً على براءة يوسف:

إن الإخوة قد سَوَّلَ لهم أنفسهم مثل ما سَوَّلَ نفس أحد ابني آدم قتل أخيه من قبل. صور متشابهة ودوافع متماثلة ما بقيت الأيام.

وتمضي الأحداث تحددو الدرس بيوسف وتنطوي سنوات، ثم يصبح شاباً، حيث يجد نفسه في خضم امتحان من لون آخر قاتم خطير، تطبق عليه يد تملك الجاه والسلطان والثروة، فيقف وتيارات متعارضة متدافعة تتساجده وتوتر نفسي ضاغط يبلغ قمته.

ولحظات عنيفة لا تقاوم إلا من قبل يوسف الذي ينفلت منها عليمًا حفيظًا.

في ذلك القصر المنيف، وصاحبه التي تراود فتاها المُفْتَرَى عليه. حب يدفع به إلى غيابات الجب، وحب يزج به في غيابات السجون إخوة له في الحلقة الأولى من الدرس، وامرأة العزيز سيِّدته في الحلقة الثانية منه.

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽¹⁾.

ويودع البريء السجن ويمكن فيه بضع سنين. رؤياه أثارت حفيظة إخوته، ورؤيا الملك كانت يداً رحيمة انتشلته من قضبان سجنه الرهيب، حيث يخرج سيِّداً يطاع لا غلاماً يباع. تصقله المحن فتصوغ منه شخصية لها وزنها وقيمتها.

فيلجأ إليه القوم لينقذهم من أزمته الاقتصادية التي أطبقت فكَّها على مواردهم التي كانت تمنحهم الغذاء والكساء آنذاك. وحين يحار الملك في تعبیر رؤياه، ويعجز المستشارون في فك رموزها ولا من إجابة عندهم غير أنها أضغاث أحلام وما هم بتأويل الأحلام بعالمين، عندئذ يُحال الموضوع على السجين يوسف.

(1) سورة يوسف، الآية: 25.

التقرير الوافي:

ويجيئهم يوسف - بما يمكن أن نسمّيه بلغة العصر - بتقرير وافي مدروس يتضمن المعلومات التالية:

- 1 - إن الرؤيا ليست أضغاث أحلام، ولكنها حقائق واضحة تتعلق بالمشكلة الاقتصادية، فالقضية إذن مصيرية خطيرة.
- 2 - إن الشعب معرض لمجاعة، وهذا يعني الدمار والفناء إن لم توضع خطة مدروسة للتغلب على هذه الأزمة.
- 3 - وبعد أن وضع لهم الركائز الأولى لدراسة المشكلة لم يتركهم وشأنهم، وإنما رسم لهم تخطيطاً شاملاً لعناصر المشكلة، كما لفت نظرهم إلى أن عنصر الزمن من أهم العناصر التي يجب أن تراعى في مراحل التنفيذ.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَنَيْنَ دَابَّأَفَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (1).

نجد في هذه الآيات تكامل المنهج المركز في ما يتعلق بالمعلومة الاقتصادية التي اشتملت على الأسس التالية:

- 1 - زيادة الطاقة الإنتاجية على مدى الخطة السبعية.
- 2 - مضاعفة الجهد المبذول الذي لا يتوقف خلال المواسم الزراعية.
- 3 - ادخار أكبر كمية من المحصول.
- 4 - توجيههم إلى اتباع الطريقة السليمة في كيفية العملية التخزينية التي تحمي الحبوب من التسوس والتلف ﴿فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾.

(1) سورة يوسف، الآيات: 47-49.

5 - ترشيد الاستهلاك وتقييده بالحد الأدنى مما يسد الرق. عمل مرهق شاق مع قلة في المطعم.

6 - إن ثقة يوسف بنفسه جعلته يتناول المشكلة بكل صدق وأمانة بعيداً عن حل مرتجل يتقرب به إلى نفوس القوم أو يتملق به مشاعرهم وعواطفهم؛ فقد عاش مع المشكلة في تحليل رموز الرؤيا فوجه خطابه للشعب «تزرعون...» لا إلى الملك وهو صاحبها؛ لأنه يدرك أن الحل لا يأتي إلا عن طريق الشعب؛ فهو الذي يشقى ويتعب، وهو الذي يواجه السنوات السبع العجاف، تلك التي ينخفض فيها منسوب المياه فتلتهم المدخر وتلتقم المخزون.

7 - ومن ثم نجد يوسف عليه السلام، يقف وقفة الواعي المدرك لما تنطوي عليه أحداث المستقبل. فيذكر القوم بأن السنوات العجاف ستنقضي، وأن منسوب المياه سيرتفع، وأن الأرض ستكون معدة شرهة للإنبات والعطاء، فعليهم إذن أن يحتفظوا بقلّة من البذور ليزرعوها إعادة لاستثمار أرضهم.

8 - الخطة طويلة الأجل استغرق تنفيذها خمسة عشر عاماً، وقد كانت محكمة بدراستها الوافية لكل الاحتمالات التي قد تطرأ خلال مراحل التطبيق.

9 - إن يوسف عليه السلام قد حرص كل الحرص على التقيّد بأسس المنهج القرآني في توجيهاته التربوية، حيث قدم المعلومة في قالب من الرفق واللين والهدوء. «تزرعون سبع سنين دأباً...» أعوام الخصب والنماء فرصة ينبغي ألا تضيع؛ لأن ما بعدها سنوات قحط وجفاف.

إذن، فالخوف من المجاعة مستقبلاً وارد ولكنه خوف تأملي وليس مرعباً.

وعلم النفس يفيدنا بحقيقة، هي أن للخوف نوعين:

1 - خوف تأملي، وهو يدفع إلى التفكير وحساب المخاطر. فأولى نتائجه الحذر الشديد الذي يؤدي إلى الانتباه المركز لمظاهر التهديد والتفكير في الطرق البديلة لمواجهتها. وثانيها: إنه يبعث على تقوية الحاجة للحصول على ضمانات لتخفيف الانفعال.

2 - أما النوع الثاني فهو ما يسمى بالرعب العصابي، وهو حالة انفعالية تستمر درجتها عالية، وتحول دون تأثر الفرد أو استيعابه للمعلومات الجديدة.

الحكم بالبراءة:

ولقد تكاملت الخطة بلمساتها الأخيرة، غير أن الذي بقي إنما هو اختيار من يتولى مهمة التنفيذ.

ويطلع صاحب القصر على النتائج التي تضمنها التقرير النهائي فيبادر بطلب يوسف أن يمثل بين يديه، وإذا بالسجين يرفض أن يخرج من سجنه قائلاً للرسول ﴿إِذْجَعِ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْتَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبَّهُ بِكَيِّدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾ يلفت يوسف عليه السلام النظر إلى التحقيق في قضيته لينبّه أذهان القوم إلى شيء يخصه دونهم، وكأنه يؤثر بذلك أن يبقى حيث هو بعيداً عن جو التحقيق حتى لا يثير اتصاله بصاحب القصر شبهة التأثير على سير أحداث التحقيق، ولم يشر إلى الطرف الآخر صاحب الدعوى؛ لأنه يريد أن يضعها أمام ضميرها وجهاً لوجه بعد سماع أقوال الشاهدات.

ثم تبدأ مرحلة التحقيق بالخيط الأول، حيث يوجه السؤال إلى النسوة اللاتي حضرن الوليمة القصرية وعرفن سر القضية: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾⁽²⁾ شهادة النفسي

(1) سورة يوسف، الآية: 50.

(2) سورة يوسف، الآية: 51.

هنا لم تكن خاصة بدائرة القضية المطروحة ولكنها وردت عامة، لقد شملت المرئي والمعلوم، إضافة إلى أن تنكير كلمة «سوء» ووقوعها بعد النفي إنما يشعر أيضاً بسعة العموم «أي شيء سيء». ومن ثم تقف الحقيقة واضحة وضوح الشمس حيث لم تجد صاحبة الدعوى الباطلة بصيصاً من دليل سوى الاعتراف الصريح:

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ إِنَّ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا وَادَّتْهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْذُهُ بِالغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمْتُ إِنِّي زَيْتِي عَفْوَرٌ زَجِيمٌ ﴿٥٣﴾ (١).

ويصدر الحكم بالبراءة عقب الانتهاء من تجميع أدلة الإثبات ووضوح كل الملابسات التي أُلقت بيريء في السجن بضع سنين. ويدعى يوسف عليه السلام للمثول بين يدي صاحب القصر، وتطيب نفسه هذه المرة، ويرحب باللقاء ليخرج طاهر الذيل مرفوع الرأس موفور الكرامة، وليكون من خلصاء الملك ليتمكن من الإسهام في إنقاذ القوم.

﴿وَقَالَ الْعَلِكُ إِنِّي نَبِيٌّ اسْتَخْلَصْتُ نَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمْتُوْا قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ (٢).

نجد هنا تدرجاً متقناً تابعت فيه حلقات مقدمة الدرس من بدايتها إلى أن بلغت النتيجة التي تحكم الربط بين الخطة والمخطط.

الخطة الاقتصادية المتكاملة:

ويضع يوسف الخطة، ولكنه لم يتصور إطلاقاً فصل الخطة عن المخطط. فلم يشأ أن يكون بعيداً عن ميدان العمل الذي تولّى رسم خطته وعاش تطورات

(١) سورة يوسف، الآيات: 51-53.

(٢) سورة يوسف، الآيتان: 54، 55.

أحداثها؛ لذا ارتضى أن يتحمل مسؤولية التنفيذ. وسره أن ينهض بعبء - يدرك أنه ثقيل وشاق مرهق - ولكنه جدير بأن يقوم بمثل هذا؛ لأن الجدارة تكوّنت بعناصرها الأربعة التي لم يكن من بعدها كمال في أي مسؤول أنيط به مثل هذا العمل.

1 - مكين في وظيفته، صاحب منزلة رفيعة، ذو علاقة طيبة، واثق بنفسه كثقة الناس به.

2 - أمين مؤتمن في قوله وعمله، إذا تحدّث صدق، وإذا عمل أخلص.

3 - حفيظ لمسؤوليته، يحفظ الود والعهد، نظيف اليد والقلب واللسان.

4 - عليم، يحيط علماً بتفاصيل ما أسند إليه من عمل، مدرك لدقائقه، يضع الأمور في نصابها، وهذا ما يعبر عنه في لغة العصر بالرجل المناسب في المكان المناسب.

إذن، فيوسف قد جنب القوم خطر تلك الأزمة الخائقة بحذقه وسلامة توجيهه ودقة تخطيطه وإشرافه المركز على العمل الدؤوب، وتحديد المدة وانتقاء الأسلوب، من حيث مضاعفة الإنتاج، وزيادة معدلات الإدخار وترشيد الاستهلاك وتقييده بأدنى حدّ. ثم إعادة الاستثمار؛ إذ الجهد كان يتعلّق بالنشاط الزراعي. ومن هنا ندرك أن نجاح أي مشروع يتوقّف على توافر عنصرين:

1 - الدراسة الموضوعية.

2 - الجانب الأخلاقي. فإذا وُجد العنصران؛ فالنجاح أمر لا مرأى فيه، وإلا فلا تنشُد نجاحاً في عمل لا يتّصف صاحبه بحميد الأخلاق.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْفَاسِقِينَ﴾ (1).

(1) سورة يوسف، الآية: 56.

التطبيق العملي:

الدرس لم ينته بيوسف، بل امتدّ به زمن التطبيق العملي الذي بذل خلاله الكثير من الجهد؛ فقد كان يتولّى مهمة القيام بالإشراف المباشر والاطّلاع على كل صغيرة وكبيرة، يمدّ يد العون لمن يقصده سائلاً، ويتعامل مع من يأتيه محتاجاً بكل يسر وتسامح، بعيداً عن الأثرة والاستغلال والاحتكار.

يفد عليه إخوته فيعرفهم، وهم له منكرون، يلتمسون منه العون والمساعدة؛ ليميروا أهلهم وذويهم. وفي التماسهم نجد أرق عبارة وألطف طلب استدراكاً لعطفه وهزاً لأريحته:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرَّ
وَجِئْنَا بِبُضَاعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي
الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (1).

عقب اللقاء كان الخطاب مُشعراً برفعة مكانته وسمو منزلته وشرف وظيفته، إنه كالمقدمة التي ولجوا من خلالها إلى شرح سوء حالتهم الاقتصادية، وأن ما بحوزتهم من بضاعة لا يقبلها المتبايعون لرداءتها، ليتنبّه إلى أنهم بحاجة إلى لفتة جود وإحسان تسدّ جوعتهم، وتبعد عنهم شبح الفقر والفاقة. وينتهز يوسف لحظة الخضوع النفسي، فهي فرصة ثمينة لإلتاحتها في إبان الالتماس، فيبادر بتذكير الإخوة بما فعلوه به وبأخيه من بعد. ويعاد شريط الذكريات من بداية المأساة. وتنقذ في الأذهان صورتها بكل تفاصيلها من بعد أن انطوت عليها سنوات وسنوات. ويقف الإخوة في مدّ وجزر نفسي: موقف انفعالي تتدافع فيه ألوان شتى من الاستغراب والعجب، ولكن يوسف يرخي ستارة المشهد بالعفو والتسامح والتجاوز عما حدث مبيّناً للإخوة أن الظفر بالحسن والأوبة بجزاء المحسنين إنما يتحقّق بدعامتين، هما:

1 - التقوى .

2 - الصبر .

(1) سورة يوسف، الآية: 88.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِن يَتِّقُ وَيُضِيرُ فَإِنَّ
اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْغَاسِقِينَ﴾ (1).

ويعترف الإخوة بأنهم مخطئون، ويبدو شعورهم بالذنب واضحاً في
تصريحهم بأن أخاهم يوسف قد فضّله الله بفوزه في الامتحان الذي اجتازه
بنجاح. ثم يبدأ الحلقة الختامية بالتخفيف عن إخوته مما هم فيه من كرب
وغم، فيرفع عنهم الحرج، ويتوجّه إلى الله سبحانه أن يغفر لهم ويرحمهم،
ويتحوّل فيبادر إلى تغيير الموقف لينتشلهم من دائرة أحزانهم إذ يطلب منهم
أن يذهبوا بقميصه فيلقوه على وجه أبيهم ليرتد بصيراً.

والقميص هذه المرة لم يكن قميص الغلام الملطخ بالدم.

ولم يكن قميص الشاب الممزّق من الخلف.

ولكنه قميص يحمل ريح يوسف العزيز: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن
تُقَيِّدُونِ﴾ (2).

فكانت بداية الدرس غدراً فامتحاناً فصبراً. ونهايته عفواً وتسامحاً من بعد
كفاح مرير من أجل غرس المثل العليا والقيم الرفيعة.

الفروق الفردية:

يوضح المنهج القرآني مفهوم التباين بين الأفراد في القدرات والمواهب
ودرجات الذكاء، فيضع الأسس التي ينبغي أن تُستخدم كوسيلة لتوصيل
المعلومة في قالبها التربوي الذي يتلاءم وحالة المُتلقّي في تنوعها وفق الفروق
الفردية.

فالقضية الواحدة قد تعالج بأساليب مختلفة تتدرج مع المستويات ذات
التنوع من حيث سلّم الذكاء والموهبة والقدرة. وكذلك، من حيث مقتضى

(1) سورة يوسف، الآية: 90.

(2) سورة يوسف، الآية: 94.

الحال الذي يخضع في تغييره لتوجهات قد تملئها ظروف بيئية، أو اجتماعية.

فالطرق، إذن، متعددة، وعلى المعلم أن يختار أقلها جهداً، وأوفرها فائدة، وأجلها مردوداً تربوياً.

فمن كانوا مثلاً، ذوي استعداد لتقبل الحكمة وقابلية لتشربها قدمت إليهم في إطارها سائغة سهلة.

ومن لم يؤهل لذلك أعطيت له المعلومة بطريقة تحمل العظة التي تنفذ إلى القلب فتتفث في مشاعره وإحساسه صورة مليئة بالحركة نابضة بالحياة.

أما من لم يتصف إلا بالمكابرة والمعاندة، فإن الدرس يُلقى إليه بالطريقة التي تتسم بالجدال. والجدل إنما يعني اللدد في الخصومة والقدرة عليها، ولم يكن على إطلاقه بل قيّد بكونه جدالاً حسناً في ثناياه لين، تأنس إليه النفس الجامحة وفي مقدماته هدوء يطمئن لرقته القلب الجاحد لبقاً ينجذب بلطفه العقل النافر.

إنه جدال، ولكنه في ثوب حوار يوصل بصاحبه إلى وضوح الحجة المقنعة ويرشده إلى الدليل الذي يبلغ بهم درجة الوعي والإدراك، ويشعره بأنه ذو رأي يعتدّ به ليوّظ في نفسه عوامل الإلفة والانسجام والإحساس بأن التأثير والتأثر عملية قد تبودلت في جُوء نفسي متأنس مع المعلم. إذن، هناك ظل من العلاقة قد شمل الموقف التعليمي، فإما أن يثمر أجل الفوائد ويحقق أسمى الأهداف، وإلا فإنه على الأقل يبقى شيئاً من ظل المودة محفوظاً.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (1).

(1) سورة النحل، الآية: 125.

إن الدرس في هذه الآية الكريمة قد احتضن الأسس التالية:

- 1 - الترتيب الذي يتدرّج وفق التطورات النفسية، فيذكر أولاً، الحكمة كطريقة لوضع اللبنة الأولى لإرساء قواعد الدرس.
 - 2 - لأن الحكمة تتجاوز بمفهومها مرحلة إثارة العاطفة وإيقاظ المشاعر إلى مرحلة السلوك العملي القويم.
 - 3 • الحكمة تعني بمختلف اشتقاقها اللغوي اتقان الأمور والتصرف بروية وتؤدة.
 - 4 - إن الحكمة ثمرة من ثمار الدراسة الموسّعة لشتى الاتجاهات النفسية سطحاً وعمقاً وجذوراً ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾⁽¹⁾.
 - 5 - إن الدرس قد تحدّد معالمه، ورُصدت مساراته التربوية، حيث إن الدعوة دعوة إلى سبيل ربّك الذي ربّك في مدرسته لا لسواه، إذ لا فضل للداعي إلا أنه يؤدّي واجبه خالصاً لوجهه الكريم وهو واثق من أن أجره - بعد ذلك - على الله.
 - 6 - ختام الدرس توجيه إلى المعلم بأن يسير في طريقة التطبيق سير الصابر الدؤوب الذي يكل الأمر لله بعد الأخذ في الأسباب والتقيد بتعاليم المنهج كمّاً وكيفاً، مع الاحتفاظ بآثرانه الشخصي الذي يُطأ من حماسه واندفاعه ويعدّه عن دائرة الملل والسأم.
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾⁽²⁾
- ولم نزل في رحاب الدرس حيث يتحوّل بنا إلى جانب آخر وهو جانب المواجهة المسلّحة التي أدّت إليها سطحية المعاند فلجأ إلى رفع السلاح للقضاء على منابع الدعوة.

(1) سورة البقرة، الآية: 268.

(2) سورة النحل، الآية: 125.

إذن فلتسكت لغة المنطق حيث لم يبق لحسن الجدل مكان؛ لأن الحال اقتضت أن يكون للغة السنان جولة دفعاً للباطل وذوداً عن حياض الدعوة، وحماية للعزة والكرامة. فللدرس أسلوب في مجال الصدام المسلح وله قواعد يرسبها لتكون دستوراً يُتبع ومنهجاً يُقتفى، ولكنه لم ينأ عن دائرة العدل، إنه يقف بمن وعاه ليضع يده على عزة الدعوة التي أعزته وكرّمته، وليذكره بأن الدعوة العزيزة الكريمة هي الأجدر بأن تتبع، وأن دعائها في كل الحالات عادلون، وبذلك يكونون أمناء على إقامة الحق في هذه الأرض. والحق هو القوة التي تدحض الباطل، وتلوي عنق الشر إن وقف أصحابه والإيمان يغمر قلوبهم يقدمون وهم يرون ألا مرء في عقيدتهم عندئذ يردون الاعتداء ويعاقبون بالمثل، فلا يتجاوزن المقدار ولا يتعدّون الحدّ الذي رسمه الله.

إنهم يعفون ويصبرون إذا كان للعفو والصبر أثر أعمق وفائدة للدعوة أجل وأكبر.

﴿وَأَنْتُمْ عَاقِبَتُهُمْ فَتَعَابُوا بِمِثْلِ مَا غَوَفْتُمْ بِهِ وَلَيْسَ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّالِحِينَ ١٢٦ وَأَضِيزْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١﴾

1 - فتوجيه الدرس في مقدمته عام شامل يلفت نظر الجميع إلى التركيز الذهني لاستيعاب المعلومة التي تصوّب خطوات النفس قبل صيرورتها عملاً يجاوز الحدّ الذي رسمه المنهج القرآني.

2 - إن قضية المثلية قضية عادلة، والعدل مبدأ لا ينمو إلا إذا أحيط بسياج دقيق يحميه من الانفلات الذي قد ينشأ عن عدم الانضباط النفسي في حالة هول الموقف.

3 - إن الدعوة إلى الصبر كانت عامة أيضاً، والصبر لا يتحقق إلا بمقاومة

(1) سورة النحل، الآيات: 126-128.

الانفعال، بكبت الفطرة، بمجاهدة النفس؛ لأنه طريق يوصل إلى الخير، وطريق الخير محفوف بالمكاره.

4 - الخطاب فيما تقدم كان بمثابة التمهيد والتهيئة لنفسية النبي صلوات الله عليه ليتقبل التوجيه الإلهي. ولما انقضت فترة الإعداد سيق الخطاب مباشرة.

5 - ولما كان للصبر مرارته وصعوبته، فلا أحد يتغلب على ذلك إلا بمعونة من الله عز وجل؛ ليكون زاداً وفيراً لمسيرة الكفاح.

6 - ثم يأتي التوجيه الذي يرشد إلى نبذ الحزن والضيق على أحداث الماضي أو مكر تذييه حقيقة عدلك وصدق عزيمتك في الكفاح والنضال؛ فللماضي آلامه، وللحاضر همومه، فلا تكن موزعاً بين هذا وذاك؛ لأن المستقبل ينتظر منك التفرغ التام لتعدّ العدة لخوض المعارك الدفاعية والتصدي لأعداء الدعوة.

7 - خاتمة الدرس بلورت الحصيصة النهائية، فأجزتها في كلمتين اثنتين، هما: التقوى والإحسان جاءتا كنتيجة بدأت مقدمتها بالتشويق الذي سار في خطبه التصاعدي؛ ليزداد التلهّف إلى الفوز بمعية الله، ومن كان الله معه نجا من براثن الحزن وتخلص من قبضة الضيق: فالضيق كما يفيدنا «علم النفس»:

هو حالة، أو موقف، أو منبه تستثير القلق وتحدث التوتر؛ لذلك كان أسوأ معوق يعوق مسيرة الدعوة ويبطئ خطواتها؛ لأنه حالة نفسية عميقة الأثر ترهق صاحب الدعوة، فتشل تفكيره وتوقف انطلاقته؛ فهو نتيجة مكر الأعداء، والمكر خداع واحتيال وإضمار للشر المبيت في الخفاء ملفوفاً بثوب من الحقد والبغض والكراهية.

ولكن المنهج القرآني يقرّر القاعدة التي تضمن أمن المسيرة في سيرها نحو أنبل غاية وأسمى هدف.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾⁽¹⁾.

وإن مراعاة الفروق الفردية كطريقة اعتمدها المنهج القرآني لتبدو واضحة في جوانب متعددة من جوانب التطبيق التي تبرز في المواقف التعليمية؛ فقد كان رسولنا عليه السلام، يتلقى من التوجيه الإلهي أجمل إشارة بأرق عبارة وألطفها؛ ليرشده إلى مراعاة اختلاف الناس في مقدار استيعابهم ومدى استجابتهم وإقبالهم وإعراضهم. ولم يكن الرسول يسره مثل هذا الإعراض، ولكنه يحزنه أشد الحزن أن يرى ذوي القوة والمنعة والجاه على مثل هذه الحال؛ فيقبل عليهم لينأ هيناً ليستميلهم، ولو كان في ذلك تأجيل لسواهم، ممن تدفعهم الرغبة الملحة إلى الاستزادة من العلم، وهؤلاء قد تفتحت قلوبهم بنور الإيمان، فهم أهل حكمة، وسبيلهم سبيل خير، فلا ضير أن ينتظروا وإن ملّهم الانتظار.

فالإيمان واقٍ، أما أولئك فهم في حاجة إلى أن يولوا عناية مكثفة، وعلاج قد يستغرق وقتاً؛ ولأن صاحب الدعوة حريص؛ فحرصه لا يدع له فرصة إلا ويدفعه إلى اغتنامها، ولا طريقة بغير أن يهيئ وسائل تجربتها، ولكن التعديل الإلهي يوقظ وينبته ويرشد إلى أقرب الطرق وأقلها جهداً وأوفرها ثمرة.

فللمنهج وعاء زمني فلا ينبغي أن يضيع فيما لا يجدي، فالوقت يمضي وما مضى فلن يعود إلا بذكرياته ومنجزاته

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾⁽²⁾ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَنْظُرَ لَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ⁽²⁾.

(1) سورة النحل، الآية: 128.

(2) سورة الأنعام، الآيتان: 52، 53.

ومن ثم تتحدّد محاور الدرس فيما يلي:

- 1 - مهمة الرسول التي لا تتجاوز دائرة التوضيح والكشف لحقيقة ما يعرّضهم لعقاب الله في الآخرة.
- 2 - إن هذا الكشف يحمل في طياته مؤثراً يحفّز من يستجيبون إلى التمسك بامثال أوامر الله واجتناب نواهيه.
- 3 - فرز هؤلاء الذين أودعت فيهم موهبة الذكاء، فكانوا في المرتبة الأولى لسرعة استجابتهم وكمال وعيهم بما يُلقى إليهم من جزئيات المنهج وتفصيله.
- 4 - تحديد مصدر الخوف في خطه المتواصل الذي يؤدي إلى درجة التقوى

﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾

- 5 - ثم يرد التعديل التوضيحي لمفهوم القيم كما يقررها المنهج القرآني من أن مكانة المرء تتحدّد بقوة إيمانه لا بعنجهية سلطانه. وأن تقوى الله هي التي تسمو بالإنسان إلى أعلى الدرجات من الإكرام والتبجيل.

- 6 - ثم تأتي الخاتمة بالتصويب الإلهي؛ لتجعل الإيمان هو المعيار الحقيقي الذي تقاس به منزلة المؤمن كمسوغ يرشحه لأن يكون أحد الذين يُحتفى بهم في مجلس رسول الله، فهم أولى بالتكريم وأجدر بالتقدير وأحق بحضور الدرس وفق شروط القبول التي قرّرها الله لعباده. وهكذا، نرى الذين لم يؤتوا شيئاً من سعة الإرادة وعمق التفكير يلجأون إلى القشور في تناولهم القضايا المعنوية؛ لأن ذكاءهم لم يُسعفهم ولم يرق بهم من خلال عالم الأشياء المحسوسة إلى الإدراك المعنوي.

فقد يقف بهم عند السفح فيخلدون إلى الأرض حيث لم يستطيعوا النفاذ من قاعدة المثلث الطفلي، فيظلّون بين أضلاعه أطفالاً في تفكيرهم وتصرفاتهم ولو كانوا كباراً في عمرهم الزمني. أما عمرهم العقلي، فإنه يبقى

حبس الملموس والمنظور والمسموع، وما هو في حيز الذوق والشم؛ لذا يؤودهم استيعاب ما انتظمته دائرة المعاني: كقضية الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء، ورغم الأدلة التي تساق في إطار مدركاتهم الحسيّة؛ فإن غشاوة تدنيهم في سلم الذكاء قد تحجب عنهم نور الحقيقة، وتطمس معالم طريق الحق أمامهم.

فيستسلمون إلى الإغراء المادّي.

ومن خصائص هذا الإغراء أن يفقد الإنسان الطفل إدراك الكيف والتنوعية في الوقت الذي يطلق له العنان في خط الإدراك الكمّي والحجمي.

ويتمادى الإنسان الطفل في هذا الاتجاه حتى يبلغ مرحلة يرفض فيها كل ما عداه، ويظل مسترخياً مع تيار الرفض هذا إلى أن ينسلخ من آيات الله، فيرى الحياة الدنيا هي الغاية التي لا غاية سواها، ويركض وراء زخرفها وينساق مع بريقها بغير وعي، حتى إذا صدمته الحجة الدامغة فإنه عندئذ يتحول إلى الوسيلة الماديّة ليتعلق بها، فيخلق منها موصلاً جيّداً في نظره إلى الحقيقة التي لا تقع في دائرة حسه.

فالمشركون حين يسألون عمن خلق السموات والأرض فلا إجابة لهم سوى أن الله هو وحده الخالق.

ولكنهم يعجزون عن إدراك الحقيقة فيدفعهم عجزهم إلى صنع الوسيلة المادية التي يتخذونها من حجر يُعبد؛ ليقربهم إلى الله زلفى.

وهذا التصور لم يختف من عالم المادّة؛ فهو باقٍ في كثير من المشاهد والمواقف، المتكرّرة، غير أنه يتقمّص أشكالاً أخرى قد تبرز أحياناً في ثوب وهمي، أو تبدو أحياناً أخرى في قالب خرافي يُنسج اعتماداً على سلبات يغذّيها الوسط الاجتماعي الذي يقعد به إدراكه الواهي في هوة الجهل والضلال. فيتخذ من هواه أو من ماله وقوته وجاهه آلهة تفتنه عن الاتجاه السليم وتسخره عبداً يقبع تحت سيطرتها الخادعة.

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَفَىٰ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ٢٢ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿١﴾

قيسات الدرس وضحت حالة صنف من الناس قد ضمهم المنهج القرآني إلى أولئك الذين تقف بهم مداركهم عند موضع أقدامهم، فلا يرون ما هو أبعد من ذلك ولو كان البعد قيد أنملة، إنهم يجمدون في زنانة أفكارهم التي يسيجها هواهم المتقلب ظهراً لبطن، وبطناً لظهر، يكرّره ويكرّرونه؛ لأنهم ارتضوه إلهاً فاتخذوا منه مصدراً لتصرفاتهم وأحكامهم ومشاعرهم وتحركاتهم، أسلموا إليه وجوههم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولكنهم لا يفقهون، فلقد كان خضوعهم مثيراً للدهشة والاستغراب حيث هوت نفوسهم المريضة هواها السقيم.

وفي التعبير بالهوى إحياء إلى التردّي والهلاك والسقوط: لأن مادة: - «ه و ي» في تنوع اشتقاقها إنما تدور حول معنى واحد هو السقوط ومن يسقط - فلا ريب - هالك خاسر وإذا كان خسارته بهوى نفسه فإن حالته تدعو إلى الاستنكار والاشمئزاز. فأى تيه هذا الذي يسدّ منافذ العقل؟

وأية حيرة حيث لا ملامح للحق تبدو ولا بوادر للهداية تلوح؟ الحياة عندهم شوق قصير ولحظة زمنية تمرّ، فإذا انقضت انقضت معها كل شيء. دهر يطحن ليموت من الأحياء من لا يدركه الموت.

وإلى هنا تقف الخطى، وينتهي الدور وتغيب شمس الحقيقة حيث لم يبق سوى ظلام الهوى يرخي سدوله ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ٢٢ (2).

(1) سورة الجاثية، الآيتان: 22، 23.

(2) سورة الجاثية، الآية: 22.

لا أحد يملك الهداية ولن يستطيع مهما حاول، ولكنه لم يعف من المهمة. فمهمة التبليغ - إذن - قائمة باقية، فعلى المعلم ألا يُحجم عن مواصلة السير، وعليه ألا يظن أن للمسؤولية نهاية وحدًا.

فهو قد اختير ليتذكر ويتعظ قبل أن يكون واعظاً، وأن يفقه المعلومة ليوصلها إلى مستقراها من الأذهان بطريقتها التي رسم خطوطها المنهج القرآني.

التوجيه خلال الممارسة:

ولقد دأب المنهج القرآني على التوجيه المتواصل للذين اختيروا لتأدية الرسالة؛ فهو يوضح أن القيام بمهمة الدعوة يتطلب الحرص اليقظ على التمسك بتطبيق الأسس التي وضعت لضمان نجاحها.

فكان التوجيه يتخلل الممارسة العملية في أثناء الاتصال المباشر، حيث يقترن بالفعل ويصاحبه ليكون أقوى مفعولاً وأشدّ أثراً حتى يتسرب إلى داخل النفس، فينير لها طريق الحق ويوقظها إلى أن مسالك الدعوة متنوعة في مجالها وفق المقتضيات التي تقتضيها المواقف التعليمية.

فإذا كان الموقف يتعلّق بتقرير حكم؛ لينتفي غيرهِ، فإن طريقة الدرس قد يتم عرضها في صورة عملية داخل إطار زمني يضم حركة العناصر وتحديد الاختصاصات ليتسنى للتوجيه توضيح المسار في حالة ركون النفس البشرية إلى واقعها، أو ميلها لما يجوز على البشر فعله نتيجة تصورات قد يؤثرها العقل ملاينة أو تطلعاً لتقديم الأولويات، مراعاة لترتيب جزئيات المنهج، غير أن التوجيه الإلهي قد يأتي - كالربيع في إبانهِ - ليجلو ملامح الطريقة التي سيتم على ضوئها عرض المعلومة:

﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ٥٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي

أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى
النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ⁽¹⁾

مشمولات الدرس تبدأ بمقدمة تنطوي على الفوائد التالية:

- 1 - تقرير مبدأ الطاعة والامتثال لحكم الله الذي ورد على لسان نبيه حيث لم يبق للخيار مكان.
 - 2 - إن رفض الحكم عصيان والعصيان ضلال وتمرد عن الحقيقة التي ستأخذ مجراها عبر مراحل التنفيذ تغلباً على كل المعوقات إلى أن تبلغ هدفها النهائي.
 - 3 - ولأن القضية ليست مطروحة للنقاش، فهي لا تحتل أخذاً ولا رداً.
 - 4 - وما تكاد تتم المرحلة الأولى من الدرس حتى يطل شبح الصراع النفسي بين الزوجين فتتفاقم هوته ويشتد النفور متطوراً بالغاً قمته ويستعصي الحل، فلا أمل إذن سوى اللجوء إلى النبي صلوات الله عليه، الذي لم ير غير الدعوة إلى الوفاق والإلفة والتغلب على الجفاء الممض.
 - 5 - إن الدعوة لم تجد مكاناً يسعها في نفس كل من الزوجين، فالخلاف ظل ينمو حتى أفرخ كراهية.
- وما ذلك إلا نتيجة الخلفية الطبقية المركوزة في ضمير المجتمع آنذاك.

وليس في إمكان الفرد التخلص من عادات وتقاليد نشأ في أحضانها وتغذى بلبانها، فامتزجت بكيانه وحياته.

ولقد كان هذا الذي حدث عوناً - ولحكمة يعلمها الله - على التوطئة

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 36، 37.

للشروع في تغيير اتجاه المجتمع والتغلب على عناصر المقاومة لتقديم الجديد الذي لم تألفه النفس في ظروفه المناسبة.

6 - ويبقى النبي في محيطه الاجتماعي يحس بالخشية والحياء مما يقال، وهو صاحب الدعوة الذي عُرف. غير أن القيام بهذا العبء جسيم مؤلم. وَمَنْ مِنَ النَّاسِ يَنْهَضُ بِهِ؟ لا أحد سواه، إنه سيواجه كل المصاعب. والتوجيه الإلهي يدفعه. فالأمر إذن باد لا محالة، والدرس ماض في شرحه بفصله إلى حيث ﴿لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (1).

7 - أما خشية الناس، فهي مرفوضة في هذا الموقف؛ لأنها وضعت في كفة الميزان مع خشية الله، وكيف يعقل أن تكون في أحقيتها مقدمة على خشية الله الذي خلقها وصاحبها؟

وتنسجم حبات العقد الزمني متعاقبة في تناسق واتساق، بداية بزواج زينب من زيد فطلاقها، ثم زواج النبي منها، وهو المشهد الأخير في فصول الدرس. ولم تمر هذه الأحداث بيسر وسهولة؛ فلقد كانت مفاجأة أثارت انتباه المجتمع الإسلامي حينذاك، وفي الوقت نفسه أتيحت فرصة مؤاتية للمنافقين أن تنطلق ألسنتهم تشويشاً وتعويقاً بأن محمداً قد تزوج حليلة ابنه زيد الذي سبق أن تبناه.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ (2)

ويتقبل المجتمع الإسلامي إبطال عادة التبني وما يترتب عليها من آثار.

﴿أَدْعُوهُمْ إِلَى بَابِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ

(1) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 38.

وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا⁽¹⁾.

ومما يفيد «علم النفس» في هذا المجال أن من أسباب الصراع النفسي كبت الرغبة وعدم تحقيقها وإبرازها إلى حيز الوجود.

وهذا الكبت يتمثل في الجوانب التالية:

1 - الموانع الطبيعية والاجتماعية التي تقف حائلاً دون تحقيق ما تصبو إليه النفس.

2 - العيوب الخلقية التي تُعجز صاحبها عن بلوغ الهدف المنشود.

3 - اضطراب الحوافز الذي يؤدي إلى التردد المُقعد عن العمل، حيث يصبح الاختيار أمراً شاقاً عسيراً.

وقد تكون الضوابط التي يرتضيها المجتمع عائقاً نتيجة خلل في تركيبته الاجتماعية، وعدم وعيه للمفاهيم والاتجاهات الجديدة التي تودّ بثّها دعوات الإصلاح.

ومن ثم، يقع بعض الأفراد فريسة الصراع النفسي الذي قد يصير في تطوره مرضاً يتعدّد علاجه إن لم تسعفه الاستجابة إلى حافز جديد يعمل على تعويض ما فقد.

لذا، كان من خصائص المنهج القرآني ألا يقتصر توجيهه على التعديل الذي يمسّ الجانب العملي، بل يتجاوزه فيغوص في أعماق النفس ليستلّ منها سخائم الأثرة، ويعد عنها شبح الأنانية المقيت، ويتحرّى في مختلف وسائل علاجه الدقّة التي لا تحاكي في سموها عندما يتعرّض لوصف آثار الانفعالات النفسية التي تبرزها ملامح الوجه باعتبارها المرآة العاكسة لمشاعر الإنسان. والأدلة على مثل هذا المسلك أكثر من أن تحصى، فراها في حشد من الحوادث مبثوثة في ثنايا القرآن الكريم.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 5.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يُزَكَّى ٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ٤ الذِّكْرَى ٥ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ٦ فَأَنَّى لَهُ تَصَدَّلَى ٧ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِيَّ ٨ وَأَمَّا مَنْ جَاءَهُ الْيَسْتَعَى ٩ وَهُوَ يَخْتَعَى ١٠ فَأَنَّى عَنْهُ تَلَهَّى ١١ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ١٢ (١).

يقف بنا الدرس ليفيدنا بأن التوجيه الإلهي قد واكب الدعوة منذ طفولتها، إعداداً وتنفيذاً وانطلاقاً، وبأن ضغوط الواقع التي لا تعترف إلا باعتبارات النسب والجاه والمال والقوة ذات العنجهية والكبر قد أسقطت حيث لم يبق لها وزن حين تتعري من لباس الإيمان والتقوى.

ويقف بنا أيضاً عند نقطة لتمتد منها خيوط مضيئة كشعاع الفجر لتغمر الساحة البشرية على امتدادها سعة وعمقاً، فتحدّد المقاييس وتضع المعايير والموازن لمنازل البشر وتصوراتهم وعلاقاتهم.

وإذا كان الرسول قد اختير، فليس معنى هذا ألا يوجّه وألا يرشد وإنما هو أولى وأجدر؛ ليكون للمنهج مطبقاً وليكون قدوة لمن ارتضاه رسولاً.

فهو قد أعلن على الملأ بأنه غوث وبأنه وُجّه التوجيه الذي ينشد منه ألا يخشى أحداً سوى الله، وألا يؤثر الوقوف في منتصف الطريق ولكنه يدفعه برفق ليظل في جو المدرسة الإلهية يسير وفق التوجيهات التي لا تفتأ تضع أمامه المؤشرات والإشارات الدالة على أن بالطريق منعرجات ومخاطر، فالحذر واجب والاحتياط مطلوب.

ويتلو الرسول صاحب الخلق العظيم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ وهو يعلم أنه المعني بذلك، وإن لم ير تقطيب وجهه وتجهمه ولكنه يحسّه ضيقاً يملك عليه أقطار نفسه، فتبدو آثار هذه الانفعالات في صورة تقبض واشمئزاز على صفحة وجهه الكريم، حتى كأنه يراها رؤى العين على صفحة مرآة إذ يقرأ:

(١) سورة عبس، الآيات: 1-11.

﴿عَبَسَ...﴾ فالكلمة موحية باستحضار الصورة بحركتها ولونها وظلّها، إنها تكوّن مشهداً حاشداً بالحركات التي تسلمك إلى إشارة التوقف؛ لتثير في نفسك انتباهاً إلى السؤال: لماذا الإعراض؟

لأن ذلك الفقير الأعمى اقتحم عليه قاعة الدرس فقطع عليه سلسلة حديثه مع الكبراء والسادة أولئك الذين طبع الله على قلوبهم.

ويساق التوجيه يحمل أشد العتاب، ولكنه يسجل بأسلوب الغيبة تأنيساً ورحمة وتخفيفاً لوقعه؛ لأن النفس البشرية إذا بدر منها ما يتوجب اللوم أحست بالألم الذي يتضاعف في حالة العتاب والتأنيب وربما يفضي إلى النفور، ويُغري بالهتف عنه، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيّج الحرص على الإصرار وحاشى أن تكون نفسية الرسول ممن يجوز عليها ذلك.

فمن غيره يقوى على أن يقذف بهذا الأمر في وجوه أولئك العتاة من كبراء قريش.

ولذلك اقتضت حكمة التوجيه الإلهي - لتضع القاعدة الأساسية للتربية - أن تسلك هذا المسلك المتدرّج تخفيفاً في بداية الشوط، حتى إذا آنست النفس وهدأت يتحول الأسلوب إلى الخطاب المباشر:

﴿وَمَا يَذُرُّكَ لَعَلَّكَ يَئُودُ ۖ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُكَ الذِّكْرُ﴾⁽¹⁾. والحصّة لم تنته بعدُ فما مضى منها قد خصص لوصف الحالة النفسية التي ارتسمت آثارها رسماً دقيقاً يهيم المتلقّي إلى التطلع والاستشراق؛ ليدخل به التوجيه بعد ذلك مباشرة في حيّز الدائرة التي تقوده إلى تقصّي الحقيقة عن سبب الإعراض استكمالاً لاستيفاء المعلومة التي توقظ النفس وتنبهها إلى دعامتين ثقيلتين في ميزان الله:

الأولى: إن الله وحده هو العالم بأسرار النفس ومكنوناتها وما ستؤول إليه من طهر ونفع يثمره الهدى والإيمان.

(1) سورة عبس، الآيتان: 2، 3.

والثانية: إن الحكم على الناس لا يستند إلى المظاهر؛ لأن بريقها خدّاع ولمعانها سراب مضلل.

أما المخبر؛ فلا يحيط بعلمه إلا الله عز وجل. وإن «علم النفس» يأتي فيضع يدنا على حقيقة هي: «إن الإنسان مهما آنس في نفسه من قدرة وحدّة في الذكاء لا يجوز له أن ينخدع بالمظاهر إذ أن كثيراً من المظاهر الكاذبة تؤدّي إلى إساءة الحكم على الناس وتقدير حقيقة مكانتهم».

وتستمر اللقطة خافقة بالحياة لترسل وميضها الكاشف لسبب التصدّي؛ والذي يلحظ أن التعبير بكلمة «تصدّي» يوحي بشدة التلهّف كما يتلهّف العطشان إلى الماء.

إذ أن من معاني مادة «ص د ي» شدّة العطش؛ ولا جرم، فإن النبي صلوات الله عليه كان يتحرّق شوقاً إلى رؤية أولئك القساة وهم يتصدرون قائمة المسلمين وتحت مظلة الدعوة حيث يكونون للإسلام قوة. ولكنهم عن حديثه معرضون وفي آذانهم وقر وعلى أبصارهم غشاوة.

وترتفع لهجة العتاب لتضاعف من إشارات التنبيه بأن هؤلاء ليسوا أهلاً للطهر والنفع والتزكية. ﴿وَمَا عَلَيْكَ...﴾ فهم أهل ضلال وجحود.

فوقت الدرس أثمن من أن يضيع في علاج المأبوس من شفائه، فلا تأبه بهم؛ لأن ضلالهم لا يضيرك. ثم يعطف التوجيه الإلهي على من جاء يسعى والخشية تغمر قلبه ليحقّق غاية ويصيب هدفاً، وقد كان في مسعاه يحمل في نفسه انفعالات متعددة. لقد أمّ مجلس الرسول لتشرق نفسه بنور الإيمان، ويمتلىء قلبه بفيض من ألوان الحكمة والمعرفة التي سارع إليها متلهفاً ليصبح طالباً في المدرسة الإلهية. فيتلقّى الدرس من معينه سائغاً هائلاً.

ويمتد خيط العتاب مشتتاً في نبرته ليلجّ مرحلة التقويم النهائي لخاتمة الدرس.

﴿كَأَلَمْ يَأْتِهَا تَذَكُّرٌ...﴾

ردع وزجر. إنها المرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ﴾؛ لأن الأمر يتعلق بقضية أعمق من أن تعالج بمثل ما عولجت به.

إنها قضية موازين ومعايير اجتماعية توضع لترسخ مفاهيم العزة.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَلَكِنَّ الْفَاسِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۖ﴾ (1)

فالإيمان والعزة صنوان لا ينفصم أحدهما عن الآخر، فإن هانت عزة المؤمنين وهبى إيمانهم، وفي ضعفه انقطاع للصلة التي تربطهم بعزة الله، عندئذ يكونون عبيداً لغير الله حيث تنحني هامة أمتهم؛ لأن مجدها في عزتها، وعزتها في إيمانها، وبناء الإيمان الكامل لا يقبل التجزئة إنما يشمخ بلبناته ويقوى بتماسكها، تمتد مثله وقيمه عبر الزمان والمكان لتقر الحقيقة المطلقة والمبادئ التي يشع نورها فينفذ من خلال التطبيق العملي الذي تتم بلورته انطلاقاً من دائرة حادث قد يكون فردياً، ولكنه يصعد في محيطه إلى أن يستقر في المجتمع الإسلامي منهجاً للحياة الفاضلة الكريمة، ونبراساً يحمله من كان للدرس واعياً، ومن تبوأ بوعيه أرقى منزلة وأرفع مكانة.

إنه الفقير الأعمى «عبدالله بن أم مكتوم» الذي تلهم الرسول عنه مرة وللقائه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ﴾ ويمضي ما حدث وبين طيات الذي مضى يذوب العبوس والتلهي. ويبقى أثر التوجيه الإلهي إشراقاً في النفس ونوراً في القلب. فيسرع الرسول للقاءه هاشماً باشاً مرحباً قائلاً: «أهلاً بمن عاتبني فيه ربي» ويواظب من امتلاً قلبه بخشية الله على حضور الدرس ليصبح بعد ذلك إماماً يؤم المسلمين في مدينة رسول الله الذي يرى أهليته لهذا الأمر الجليل فيستخلفه مرتين على المدينة.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۖ وَهُوَ يَخْشَى ۖ﴾ (2)

(1) سورة المنافقون، الآية: 8.

(2) سورة عبس، الآيتان: 8، 9.

التوجيه في مجال الدفاع عن العقيدة:

ويتابع التوجيه الإلهي خطواته عبر الطريق الذي اختطه للدعوة ليسيير على أديمها الداعي الواثق المتمد، الذي يدرك جيداً أين يضع قدميه، فيأخذ بيده ويدله الدلالة الهادية التي تحذره مما في الطريق من مزالق وعقبات، ثم يكشف له عن خائنة الأعين وخبايا القلوب، ولم يتركه يتعامل تعامللاً يركن فيه لأولئك الذين يخادعون الله وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون.

إنه يتدخل في اللحظة المناسبة؛ ليصوب ويفضح وينبه إلى مواقع الخطأ.

ورغم ذلك، فإن مثل هذه الحوادث ما تنفك تتكرر بأسلوبها المتشابه في المحيط البشري؛ لأن الحكمة الإلهية اقتضت ولم تزل أن يكون الدرس المستفاد يظل يرسل قبساته المعرفية وومضاته التربوية على مدى الأزمان وتعاقب الأجيال، وأن المدد الذي ينبعث من معجزة القرآن لا ينقطع ولا يفتر؛ فهو في مده قوى وفي صراعه مع قوى الشر ظافر غالب، وفي مختلف مجالات الحياة يزيل الأقنعة عن النفس البشرية ويعريها لتقف بغشها الذي تنتزعه من سخائم المخادعة. ويزيح الستار الذي تنسجه الألسنة الرطاب في ملمسها؛ فهي دائماً تتوارى خلف ركाम الزيف والنفاق؛ لتروغ إلى مسارب ملتوية، ودروب متعرجة تمويهاً وتضليلًا.

وإن يك ما يُدارى ينطلي بعض الوقت على الأنفس الزكية؛ فإنه لا يخفى على التوجيه الإلهي الذي يسبر الطبيعة البشرية فيضعها في مواجهة التحديات المتنوعة وفق الحاجات النفسية ليرى مدى تحصيلها المعرفي المستفاد من الدرس، استقراءً واستنتاجاً.

﴿إِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ١١ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ إِسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ

يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٣﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ آيَتَيْنِ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٤﴾ (١).

1 - لقد ورد التوجيه هذه المرة في مجال الدفاع وردّ الاعتداء، ورسم الخطة المتكاملة التي تؤطر تفاصيل الإعلان عن التعبئة العامة والنفير الشامل استقصاء لكل الحالات؛ لأن الأمر جامع يهم كل فرد من أفراد الأمة، حيث لا سلامة لكيانها إذا كان للعذر مكان وللحيلة التي يديها في نفسه خور مستقر.

2 - إن الأمر صدر محدّداً عنصري الجهاد وهما: المال، والنفس. وقد قدّم المال لأنه عصب الحياة، حرباً وسلماً.

فالقوة المادية بمختلف أنواعها وألوانها وفق تطوّرها الصاعد، هي التي تفتح باب التضحية للنفس، وهي التي تهيم الحياة الحرّة الكريمة السعيدة.

إذن، فمبدأ الدفاع عن العقيدة ينطلق من إعداد العدة. العدة بكل شمولها واتّساعها بداية بالصراع مع النفس؛ لأن وسائل المقاومة التي يستخدمها الإنسان لمكافحة عوامل الشر الداخلية سلاح يحتاج إلى تطوير لمجابهة التيارات المتجدّدة بأساليبها في عالم المخترعات العصرية ذات الجواذب المتناقضة.

والإنسان في صراعه مع نفسه كالأمة في كفاحها ضد التسلّط بنوعيه: الداخلي والخارجي.

وإذا كان خطر العدوان الخارجي يبدو واضحاً في حجمه ونوع أسلوبه، فإن ما في الداخل من خطر أشدّ ضراوة وأعنف شراسة؛ لأن بقدرته على التمويه والتزلف يختفي تحت ستار كثيف يصنعه بزيفه البارع ليندس بين الصفوف متودّداً ليكسب الثقة التي تمكّنه من تسديد ضربته وتحقيق مآربه.

(١) سورة التوبة، الآيات: 41-43.

لذا نجد المنهج القرآني يركز على اتخاذ الحذر كناقوس يُدق باستمرار لينبّه إلى الاستعداد والتهيئة والحيطة التي تجعل الأمة حريصة على ألا تترك بين صفوفها ثغرة ولا في بنائها منفذاً.

3 - ذلك - لو علمتم - خير لكم فإن في الجهاد عزتكم وفي النضال كرامتكم وفي التماسك حریتكم. ولكن البعض يبقى في شروده غافلاً عن محتويات الدرس بأبعاده، فينجذب بطبيعته ذات الطابع الأرضي نحو العرض القريب، عرض الدنيا الكسب المادي إذا رأوا تجارة انقصوا إليها مسرعين. نماذج تتكرر لاهثة ساعية متخاذلة محجمة. أما إذا أحسوا بأن لا ربح ولا كسب ولكن العسر والمشقة؛ فإنهم عندئذ يركنون إلى الحيلة والایمان الكاذبة والاعذار الخادعة بطلائها البراق وثوبها المنمّق بصور النفاق، التي لا تقف عند حدّ الزمان والمكان، تتفق في جوهرها وتتشابه في أرديتها وفق حجم وطول من يرتديها عبر العصور.

4 - ثم يصدر التوجيه رقيقاً كنسمة السحر وكأن يداً حانية تربّت على كتف المؤجّه لشعره بالعفو والعطف حتى يلتفت ليرى أنه هو وحده المقصود بهذه المقدمة اللطيفة في مثل ذلك الموقف الذي يتّسم بالشدّة والعنف. فالأمر يتعلّق بالدعوة إلى التبعة العامة للدفاع عن مصير الأمة. فلا تخاذل إذن، والأعذار مرفوضة. والتحري مطلوب؛ لأن الدرس لم يزل في دقائقه الأولى وفي فصله التمهيدي؛ فالهدف العام لم تبد ملامحه بعد. ومعالم الطريق لم تُلخ في الأفق إلا لمن كان ذا نظر بعيد، ولكن التوجيه توجيه إلهي، فلو لم يكن كذلك لانقلبت الموازين. ربما إلى شيء آخر، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ؟﴾ (1).

فالقضية حينما تطرح للنقاش والبحث في أثناء الدرس تستقطب كل الآراء

(1) سورة التوبة، الآية: 43.

التي يُدلي بها من يهمله أمر الوصول إلى الحقيقة. وقد يتفق أن تلتقي أغلبية الآراء حول نقطة واحدة؛ لتتحول إلى قرار يُتخذ من الجميع ويكتسب قوته من فاعلية الجماعة ليصير ذا مفعول في محيط المجتمع كضابط يرتضيه كل الأفراد ولو لم يكن مدعوماً في مبدأ الشورى من جميع الآراء.

ومن خصائص المنهج القرآني أيضاً، ألا يدع الأمر يمضي دون أن ينبّه إلى أن ترك الأولى لا أثر له من حيث التعديل الخاص بمحتويات القرار، وأن بذل الجهد واستفراغ الطاقة يُسقطان العقاب حيث يبقى اللوم والعتاب.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَوْ أُسْرِيَ حَتَّى يَخُتِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ آءَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٨﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٦٩﴾ فَكُلُوا مِنَّمَا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٧٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قَدْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأُسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٧١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧٢﴾ (١).

1 - يعالج الدرس قضية أسرى الحرب في أول لقاء للمسلمين بقوى الشر والطغيان.

فيقف صاحب الدعوة ومعه المسلمون عقب انتصارهم في مواجهة القضية التي لم يسبق أن مزّوا بتجربتها ولم يكن القرآن أن تناولها بالتوضيح والشرح بعد.

لذا بقيت المسألة موضع شُورى ورأي، وتبدلت الآراء ليتولد عن تبلورها القرار الذي نفذ - فيما بعد - بافتداء الأسرى.

(1) سورة الأنفال، الآيات: 68-72.

ولكن القرار قد استند في مسوّغه إلى عرض الدنيا الذي لا يرقى إلى مستوى الآخرة في موقف المقابلة التي روعيت هنا:

﴿ثَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزُ حَكِيمٌ﴾ (1)
فلا ينبغي إذن للمسلمين ألا يريدوا إلا ما يريده الله. وقد وصف الله نفسه في تذييل الآية بأنه عزيز والعزة: قوة. فهو يدعوكم إلى إبداء قوتكم لتكونوا أولياءه عن جدارة، ولا سيما وأنتم في خطوتكم الأولى في موقف المواجهة مع أعدائكم. ومن الحكمة الراقية في التدبير والرأي الأكمل ألا يكون للنبي أسرى حتى يشخن في الأرض. والإثخان إنما يعني: التقتيل وعدم المهادنة.

2 - لذلك كان التوجيه الإلهي موضحاً الهدف الأسمى، وهو كسر شوكة المشركين وذلك بإعمال السيف في رقاب المقاتلين وأخذهم بالشدة حتى يروا هيبة المسلمين وعظمة قوتهم التي تبث في نفوسهم الفزع والخوف كي لا يجرؤوا على معاودة الكرّة. ولا ريب أن هذا الهدف أكبر من أن تعدله حفنة من مال يأخذها المسلمون فدية من أسير يطلقونه ربما يعود فيحمل سيفه في صفوف الأعداء مقاتلاً.

3 - إن أصحاب التضحية الذين رفعوا أرواحهم على أكفهم يوم التقى الجمعان قد استحقوا العفو من الله وفازوا بالتجاوز عما بدر منهم، فكوفئوا بأن أحلت لهم الغنائم التي يظفرون بها في حروبهم مع أعدائهم كجائزة اختصّوا بها دون غيرهم من الأمم. وقد كان من ضمن ذلك الفدية التي أخذت نظير إطلاق سراح أسراهم.

وإن الدرس ليسير حثيثاً في اتجاه التذكير بالتزام تقوى الله كي لا يخالط نفوس القوم شيء من الغرور، فيظنوا أن في سعة رحمة الله ومغفرته ما يُرخي لهم العنان الذي يجعلهم يضمنون ببذل ما يجدر بهم أن يبذلوه من جهد تأميناً وضمناً لمسيرة الدعوة.

(1) سورة الأنفال، الآية: 68.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (1)

4 - وبعد الفراغ من التوجيه الذي تخللت قبساته عدة أحكام حيث تم تقريرها بطرق تربوية روعي في عرضها الجوانب النفسية - تحول الخطاب إلى المعلم ليتولى القيام بمهمته التبليغية في خط المنهج القرآني. فعن طريقه ينبعث النور الإلهي ممتداً ليصل إلى قلوب أولئك الأسرى فاتحاً لهم باب الرجاء والأمل الرحيم المشرق لينقدح في أذهانهم.

عامل تغيير عنصر الاعتقاد تغييراً جوهرياً ومما يراه «علم النفس» أن هذا التغيير يؤدي بالضرورة - إلى تغيير عنصر الوجدان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ لَمْنَ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَشْرَى إِنَّ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (2).

وإلى جانب هذا يحذرهم من العودة إلى الدس والخداع والمكر وسلوك الطريق التي سلكوها من قبل، فإن فعلوا ذلك فالله لهم بالمرصاد. فلن يفلتوا من عقابه فلا مهرب لهم من قبضته ولا نجاه فأين المفر؟
فإن الله بالسر عليم وبتدبير الأمور وتصريفها حكيم.

وفي مقام التهيئة النفسية نجد التوجيه الإلهي يداجي النفس المؤمنة، فيزرع فيها بذور الثقة والاطمئنان ويعدّها بأن النصر آت لا ريب فيه، ولكنه في الوقت نفسه يحضّنها على الإقدام، ويحثّها على مواجهة العدو بروح معنوية عالية.

الرؤيا المنامية

عن طريقها يتم التخطيط النفسي للمعركة، وذلك بتوضيح المفاهيم العسكرية من حيث تحديد الإمكانيات العددية ذات الفعالية القتالية انخفاضاً وارتفاعاً.

(1) سورة الأنفال، الآية: 70.

(2) سورة الأنفال، الآية: 71.

إذ يرى النبي صلوات الله عليه مناماً قلة عدد الأعداء مع أنهم كثيرو العدد مظهرأً أما مخبر؛ فهم ألف كآف فلا وزن لهم في ميزان القوى الحربية؛ لأن قلوبهم من الإيمان خواء، وليس لهم من زاد العقيدة ما يغذي نفوسهم، فلا رباط يشدهم، ولا دافع يدفعهم إلى بلوغ الهدف الذي يوصلهم إلى حياة أسعد إن هم قتلوا في ساحة المعركة.

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَلَازَمْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَالْإِلَهَ تَرْجِعُ الْأُمُورَ ۝ (1).

1 - إن تحضير الدرس بفصوله يتم في جوّه التمهيدي ليضع المقدمات التي تسلم إلى النتائج الواضحة الصادقة في دلالتها الحقيقية. ولم تكن الرؤيا في تصويرها للموقف قد اختفت وراء رمز من الرموز التي تقف محتاجة إلى فك أو تحليل، وإنما عرضت في إشراقة لمساتها موائمة للموقف الذي يقتضي سرعة إبراز ما يحول بين النفس وتردداتها، ويقطع كل الاحتمالات التي قد تطامن من شدة الحماس وتبطل من سورة الإقدام.

2 - إن المنهج القرآني يحيط بالنفس البشرية فيكشف عن طبيعتها في حالة ضعفها، حيث لا تجد من يربّي فيها صدق العزيمة وقوة الإرادة، وشدة البأس، لذا نراه يوضح الأسباب التي دعت إلى تقليل شأن العدو وضآلة عدده ولو أجمل الأمر أو انعكست الرؤيا لدب الخلاف بين صفوف المسلمين ولأصبحت جبهتهم بالوهن والشلل ولتباينت آراؤهم.

فمنهم من يرى القتال، ومنهم من يتردد، وربما منهم من يتقاعس: ﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾ (2) وعند اللقاء، والتحام الصفوف،

(1) سورة الأنفال، الآيات 44، 45.

(2) سورة الأنفال، الآية: 44.

واشتباك السيوف تتكرر الرؤيا هذه المرة من الطرفين. يرى المسلمون أعداءهم قلة. أما الأعداء فإنهم كذلك. يرون المسلمين قلة في عددهم ولكنهم أكثر عند اللقاء، صبر في ساحة النزال، أشداء على الكفار، رحماء بينهم ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَالْإِلَهُ تَزَجُّعُ الْأُمُورُ﴾ (1)

وهكذا ينتهي الدرس بتخطيطه وتنفيذه وتربيته لنفوس المؤمنين وهم مقدمون على خوض المعركة التي تقرّر مصير الدعوة وترسخ أركانها وتؤصل شجرتها لتسقى وتطاول بفروعها السماء.

المعركة التي ترسم الخطوط الواضحة لفريضة الجهاد والجهاد باق ما بقي الصراع بين الحق والباطل؛ لأنه ابتلاء وتمحيص ومحقق لدولة الكفر وفوز للمؤمنين الذين يظفرون بأرفع العلامات في الامتحان النهائي، فالنصر من عند الله حقيقة لا مرأى فيها ولكنه لم يمنحه هبة بل بثمر، والثمن باهظ، إنه الدم والعرق والكفاح والنضال والصبر والثبات.

﴿لَيْتَهُلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنِّي نَبِيَّةٌ رِجُلٌ مِّنْ حَيٍّ عَنِّي نَبِيَّةٌ﴾ (2) أبعد هذا من جلاء ووضوح؟ ويقف التوجيه الإلهي ليقرّر أئمن جائزة تمنح للذين فازوا في الامتحان العسير في ساعة العسرة، تلك الساعة التي كادت تزيغ من شدتها قلوب، وتضطرب لقسوتها نفوس؛ لذا اختير أن يكون وقتها عصيباً ليجد المسلمون أنفسهم أمام مسؤولياتهم الجسام، وليعلموا أن المسؤولية ليست كلمة ترددها الألسنة وتحبرها الأقلام، ولكنها أمانة حملها ثقيل وطريقها شاق مرهق.

إنها مواقف وتضحيات وجهود ومعاناة، فيالذي ينهض بعبثها ويؤدّيها بنفس راضية إنما يستحق العفو والقبول والاعتراف

(2) سورة الأنفال، الآية: 45.

(2) سورة الأنفال، الآية: 43.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْفُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١١٨ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ١٢٠﴾ (1).

- 1 - إن الدرس في البداية يعد الكشف الذي يتضمن فئات المجازين وقد صدر باسم النبي صلوات الله عليه؛ ليكون للترتيب وقعه الطيب في نفوس المسلمين، وأن الكشف قد ضمهم، ليزيد من علو شأنهم، ورفعة منزلتهم، ويجعلهم يثقون بأنفسهم في مستقبل كفاحهم لنصرة الحق.
- 2 - إن عسر الساعة وشدتها قد منحا الفرصة للذين لبوا دعوة الجهاد للتعرف على من تهاطل في بداية الأمر حتى إذا أحس بالخرج لحق بالركب مسرعاً.
- 3 - إن الدرس ليضع يدنا على حقيقة تفاوت الناس في مواقفهم إزاء تقبلهم لداعي الجهاد؛ فمنهم المتردد، ومنهم الراض المخذل. ومنهم الملبى الجريء المقدام. ومن الناس من يحجم ولكنه سريع الأوبة والقبول.
- 4 - لقد تكفل المنهج القرآني بوضع كل فريق من هؤلاء في مكانه الذي يحدّد هويته في تركيبة المجتمع الإسلامي لتتم عملية التمحيص والكشف والتمييز، وبذلك ترسم الملامح الأساسية على صفحة التخطيط الدفاعي في مجال الإعداد النفسي للمعركة.
- 5 - إن الإعداد ليبدأ بإيقاظ الرغبة الذاتية حيث يتدرج في تنميتها مع سلم الانتماء إلى الأمة حتى تتعاضد لتصبح قوة صامدة تدرأ الخطر الذي يتهددها وتذود عن حياض عقيدتها.

(1) سورة التوبة، الآيات: 118-120.

6 - إن التبعية قد تَمَّت في ظروف قاسية ومعاناة نفسية مؤلمة، كما أفادت بمدلولها اللغوي دقة معنى الامتثال للقيادة الرشيدة السائرة نحو الهدف وهم خلفها ماضون يحثّون السير في مشهد حي بحركته ذات الصبر والجلد والمنعة والإباء.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ..﴾

7 - إن الدرس يمضي ليسجل لنا حادثة الثلاثة الذين تخلّفوا عن ركب الجهاد فقعدوا يؤثرون وارف الظل المنعش وبارد الماء المنشط، إنهم استمروا الجلسة بين الأبناء يشمرون حيث يلدّ لهم طيب القعدة وهم يتبادلون الحكايا مع صبيّتهم الصغار، وكأنهم عن شأن المسلمين غافلون. فلا يهتمون بمن يقاسي حرقة العطش ولسعة الجوع، يرون القافلة تسير يلفحها قيظ الهجير. أما هم، فقد تفوقوا في دائرة أنانيتهم. ولكنهم فجأة وجدوا أنفسهم في منأى العزلة الذي جعلهم كالشيء ملقى في ركن منزو يطبق عليه الظلام وتلتهمه الوحشة.

فلا الأرض برحابتها يرونها أرضاً، ولا السماء تبدو بجمالها سماء. فكأن الأرض لملت أطرافها وضمتهم بقبضتها الصخرية. وكأن أنفسهم أوعية قد ضاقت فاشتد ضغطها حتى انسحق ما بداخلها فلم يبق من عصارة الحياة شيء.

فأي ألم أقسى؟ وأي جرح أعمق من أرض ونفس يضيقان معاً؟

فليس في لغة العصر وأسلوبه ما يشبه هذا التذنيب الممض.

إنه الحصار النفسي الذي لا مفر منه ولا منفذ.

فلله الأرض والله النفس، فلا ملجأ منه إلا إليه، وهكذا تؤوب النفس عندما تقف بها نقطة النهاية فتسلّم وجهها لله لعلّها ترى في ساحته بصيصاً من أمل وبارقة من رجاء، ترنو فتلتمس العون، ولكن ممن؟

لا أحدى سوى الله. ولم يجد أولئك الثلاثة إلا الصدق حيث لا منقذ غيره،

وليس من سبيل عدا الاعتراف بأن لا عذر لهم يبدو. فلم يكونوا كالذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

ولم تدرج أسماؤهم في قائمة الذين يدعون - وهماً - بأنهم شغلوا عن الجهاد بالمال والأهل.

ولا ممن يتخذون من بعد الشقة مسوغاً، وإنما هي الهفوة والزلة. وقد يضاعف الموقف - لشدة خطورته - نوع العقوبة.

فقد امتدت بالثلاثة مدة التذنب والتعذيب، فقاموا خلالها ألواناً مرة من الشعور الموجه وضغط الضمير المؤلم والنبد الاجتماعي الذي ينشب أظافره في أعماق النفس الجريح ليضاعف من حزنها وألمها وندمها.

ولعل من أهم الوسائل التربوية وسيلة النبد الاجتماعي، فهي ذات وقع شديد على النفس، وأثر عميق في تغيير الاتجاه.

وهي علاج إيجابي لتطهير النفس وتنقيتها من شوائب الأثرة والأنانية ليدفع بها إلى حب الإيثار والتضحية في سبيل العقيدة.

ولينقلها بعد مرورها بمراحل التجربة المرة. من ضيق الأرض والنفس إلى ساحة التوبة وسعة الرحمة التي تحتضن تحت مظلتها كل شيء ولكن لا يتفياً ظلالها إلا من آمن وصدق واتقى.

وعقوبة العزل عن الجماعة إنما تعني حرمان المعزول من إشباع حاجاته النفسية:

كحرمانه من الحب الذي يتبادل مع الآخرين من أفراد المجتمع. وفي مثل هذا الحب عنصر المؤانسة الذي إن فقد حلت الوحشة والفرع، وكذلك حرمانه من التمتع بحقوقه والقيام بواجبه، عندئذ يحس بالإحباط المؤلم الذي يقوده إلى دائرة اليأس، وفقدان الثقة بنفسه والاستسلام إلى الاحساس الممتنامي داخل نفسه بأن دوره في الحياة قد انتهى، وأن قيمته كعضو فاعل قد تضاءلت.

ومن العبء الثقيل الذي لا يطاق أن يرى ممن حوله يصنعون الحياة ويسهمون في وضع لبنات التجديد في بناء الحضارة والتقدم، إن هذا لمن القهر النفسي أن يشاهد المرء الحركة وهو جامد لا يُبدي حراكاً. وهكذا حُلِّف الثلاثة؛ تركوا فأهملوا بعد أن لاذوا بالصدق؛ لأن في الصدق النجاة واحتموا بالصراحة؛ لأن في الصراحة إظهاراً لنور الحقيقة، والحقيقة هي الزورق الذي يُمخر عباب اليأس إلى شاطئ السلام، ويمرق من لجة الحيرة إلى قمة الأمان.

إن وميض الإيمان قد انتشل أولئك الثلاثة؛ ليكونوا قدوة يقتدي بها المؤمنون، وأسوة يأنس بصحبتهما المتقون، ومنارة يهتدي بنورها السائرون، لقد من الله عليهم فكرموا؛ لأنهم صدقوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (1).

فالصدق - إذن - يكون مع النفس أولاً؛ ليصبح نقطة البداية في حياة الفرد حيث ينطلق من هذه النقطة شعاعه ليعم ساحة المجتمع قاطبة. والصراحة والصدق هما الركيزة الأساسية التي تقوم على قاعدتها حياة المجتمع المنتجة الخصبة؛ لأن الصراحة تنبعث من ثنايا الشجاعة في إبداء الرأي والنصح. والصدق، إنما يعتمد عليها في التعبير عن الحق والواقع والاعتراف بملاحظات المسلك الذي تسلكه النفس في حالة ضعفها. غير أن درجة الصراحة والصدق لن يبلغها إلا من يمرّ بامتحان دقيق وعسير في إرادته وإيمانه بالله. ثم بنفسه وبالقِيم؛ لأن الانتصار على التردد والتأرجح بين دافع الإعلان والكتمان ليس بالأمر السهل اليسير. فهذه المرحلة تمثل مرحلة الكفاح الأولى لعملية البناء، أي بناء تقام دعائمه على أسس الخير والإصلاح.

والصراع في حيز النفس إنما يحتاج إلى عنصر الشجاعة ولا يعني هذا نفي

(1) سورة التوبة، الآية: 120.

الخوف؛ لأنه لو لم يوجد لما حدث صراع، ولكن النصر لا يتحقق إلا بامتلاك السيطرة والقدرة لتتم عملية ترجيح كفة الشجاعة.

ومن هنا، نجد أن من مميزات المنهج القرآني أن يمس أعماق النفس مشاً مباشراً في توجيهاته التربوية، حيث يضع الأسس التي تحرك فيها عوامل الامتثال بالمقارنة، ولفت الانتباه إلى الإثابة السخية كحافز يحفز إلى مضاعفة بذل المزيد من الجهد، ويجنبها في الوقت نفسه مزالق الخطأ ومساقط الانحراف.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَصِيْبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ ﴿١٢١﴾ وَلَا يَتَفَقَّهُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (١).

1 - الدرس هنا عمّد إلى معالجة ظاهرة التخلف عن الجهاد والهروب من أداء الواجب المقدّس؛ فقد وجّه إلى أهل المدينة ومن حولهم إنكاراً عاماً؛ ليدفعهم إلى سرعة الاستجابة في حالة صدور الاستدعاء العام، وقد أيقظ في نفوسهم عامل إشباع الحاجة للانتماء الاجتماعي، والانجذاب نحو القيادة التي لا ترقى عن مستواهم في هذا المجال، فكيف إذن، يرغبون بأنفسهم عن نفسه فلا ينبغي أن يتركوه في الميدان منفرداً؟

لأن القضية تهم الجميع؛ فهي قضية دفاع وكفاح وبعد ذلك قضية بناء

(1) سورة التوبة، الآيتان: 121، 122.

والبناء لا تنهض دعائمه بيد واحدة بل بأيدي متعددة؛ فمن رام أن يستظل بسقفه فلْيُسْهِمَ بيده في وضع لبناته.

2 - ومن ملامح الهوية الاجتماعية التي ركز الدرس على تقويتها تنبيه الأمة إلى الخطر المحدق بها، وإلى أنهم أهل المدينة.

كما أثار في الأفراد عاطفة الرغبة في الظفر بالثواب مقابل كل خطوة يخطونها.

فلألم الجوع ثمن، ولحرقة العطش جزاء حسن. وللتعب والمشقة جوائز قيمة.

فإذا جاعوا فليكن جوعهم في سبيل الله وإذا عطشوا ففي سبيل الله يكون عطشهم، وإذا تعبوا فلا يتعبون في غير ما يُرضي الله.

إذن فكل السبل قد أسقطت عدا سبيل الله فمن إليه وجهته فإنه سيظفر بالثمن الباهظ: العمل الصالح.

3 - وفي إبراز معالم الحركة في اتحادها وتعاونها تجاه العدو لإغاظته والنيل منه، حضّ على المضي قُدماً لتحقيق الغاية المنشودة والهدف المرجوّ.

4 - ولم يغفل الدرس دور الاقتصاد كعامل أساسي في تكثيف القوى الفاعلة في مجال الدفاع؛ لذلك كانت الإشارة في توجيهها مركّزة على النفقة مهما ضوّلت؛ فلم تضع لدنوها حدّاً؛ لأن القليل إذا تجمّع كثير، ولأنّ الإسهام ولو باليسير دعامة من الدعائم القوية التي تقام عليها جسور التعاون.

وبالتعاون يتّسم شعور أفراد الأمة بوحدة مصيرهم وقضيتهم، وإذا قوي هذا الشعور وتنامى تولّد عنه الاعتقاد بكونهم أمام عدو لا مفر لهم من مواجهته.

5 - إن الدرس يرسم أمام الأمة بأفرادها صورة حركتهم وهم سائرون لملاقات

العدو ترتفع بهم الوهاد والجبال وتستقبلهم بطون الأودية، حيث يسجل لهم بكل موضع قدم أجر مذخور عند الله الذي لا يغرب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

فالجزاء مغر، والريح وفير. وإن جذوة الحماس أمام هذا وذاك لتزداد اتقاداً واندفاعاً ومن ثم تختفي الأعذار بين صفوف المؤمنين وتنعدم ظاهرة التخلّف عن داعي الجهاد التي لم يحدث قط أن قوبلت الدعوة في بدايتها بأخطر منها.

6 - والتعبير هنا «لأهل المدينة» مشعر بأن التخلّي عنها مزرٍ معيب، فكيف يتصوّر أن يترك الأهل دارهم التي آوتهم وأظلتهم نهباً للغزاة إن هم قعدوا عن الدفاع حتى يداهمهم الأعداء في عقربها؟ كما يذكرهم إيصلاً لهم بخيط الوعد الممتين الذي سبق أن قطعه على أنفسهم في أيامهم الأولى التي شهدت ميلاد الدعوة الإسلامية عندما وقفوا صفّاً صامدين كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً. ولأنهم المحور الذي تلتفّ حوله بقية المحاور قد انسحب التوجيه على من جاورهم ليتمتدّ مفعوله عبر بعده: الزماني والمكاني، حتى لا تنفكّ المدينة عن سكانها؛ فهي بهم عامرة شامخة ما بقي لدعوة الحق هتاف ترتفع به حناجر المؤمنين.

ومن خلال الحركة الهادفة يُبرز المنهج القرآني المعلومة؛ ليقدمها في حجمها زاخرة بانتفاضة الحياة لكي لا يستوعبها ويدركها إلا من أوتوا القدرة على الحركة، ذوو الضمائر الحيّة؛ ليتم لهم التقاطها من بطون المواقف المفعمّة بنبض التجربة ونبل المقصد وشرف الغاية.

فالحركة، إذن، هي المجرى الأساسي للتفقه في الدين عبر درجات سلم الجهاد وهي. أيضاً الرافد الذي يغذي ينبوع الدعوة بحركته الدائمة ومده المستمر. وللحركة اتجاه، ولكن المنهج القرآني قد حدّده حيث عمّق مساره حتى لا تنحرف أو تضلّ.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (1).

1 - بعد أن عولجت ظاهرة التخلف عن الجهاد. وقد كان لهذا العلاج أثره الطيب الذي جعل المؤمنين يقبلون في وفود زاحفة على المدينة تلبية لدعوة الجهاد، واستجابة لتوجيهات القرآن - سارع الدرس إلى إحكام الحلقة الثانية التي تضع للمجتمع القاعدة التنظيمية لتكتمل عملية التفقه عن طريق الممارسة والتدريب العملي، تناوباً وتبادلاً للمعلومة المستقاة في ميدانها الحركي.

2 - إن التوجيه الإلهي قد صدر في البداية لأهل المدينة ومن حولهم. أما في الموقف الثاني، فقد عمّ جميع المؤمنين حرصاً على اتزان الهيكل التنظيمي للمجتمع وتنسيقاً لبث العلم، حتى لا يتخلف أحد من أفرادهِ دون أن ينال وافر حظه منه.

3 - إن تنظيم المجتمع إلى فرق وطوائف ليدلنا بوضوح على أن هذا التقسيم هو أجدى طريقة للتفقه في الدين بالنفیر.

فالطائفة التي ترى وتسمع وتتلقي فنون الحرب حية في ميدانها تكون قد تعلّمت؛ لأن القضايا المتجددة والأحداث المتغيرة والظروف المتولدة عن تلك المواقف المختلفة في ساحة القتال إنما هي ألوان للمعرفة.

وكذلك الآراء التي تثار حول الاحتمالات والملابسات والحلول الواردة لكل المشكلات عن طريق الوحي وهم بصحبة الرسول صلوات الله عليه، كل ذلك يُكوّن الأسس العلمية للتفقه في الدين تتشربها نفوس تلك الطائفة لتظفر بالمؤهل العلمي الذي يؤهلها لتصبح قادرة على القيام بمهمة التعليم، للدين

(1) سورة التوبة، الآية: 123 .

اقتضت ظروف التنظيم أن يبقوا ليتلقوا تعليمهم، ثم تتاح لهم فرصة مواصلة الجهاد تطبيقاً عملياً حذرين - في الاتجاهين معاً.

﴿يَتَفَقَّهُوْا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾⁽¹⁾.

فلنا أن نقف عند الإنذار والحذر لتبين أن تخويف القوم من مغبة التفريط والتكاسل عن أداء الواجب تربية وعبادة.

وأن تنبيههم إلى أخذ الحيطة والحذر مما يحاك ضدهم في الداخل والخارج من مؤامرات، درس واجب استيعابه؛ فقد أقره المنهج القرآني منذ أن انطلق في هجرته يبحث عن الأرض المؤمنة؛ ليتخذ منها القاعدة الصلبة سعيًا لتحقيق أهدافه وتأميناً لطريق الجهاد إلى بلوغها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أُولَٰئِكَ أَجْمَعُونَ ۖ وَإِن مِّنكُمْ لَمَن لَّا يَتَّطِئُ فَإِن أَصَابَكُمْ مِّصْبَبَةٌ قَدْ أَفْعَمَ اللَّهُ عَلَىٰٓ ذَٰلِكُمْ أَكُن مَّعَهُمْ شُهَدَاً ۖ وَلَٰئِن أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ يَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾⁽²⁾

1 - افتتح الدرس بالنداء، وللنداء دلالة العامة على العناية الكاملة والاهتمام العظيم بالمنادى وبالمطلوب.

وفيه من التشويق والإثارة ما يهزّ النفوس ويأسر الأبواب. وذلك باشماله على ما يوحى برفعة شأن المنادين وعلو منزلتهم، وسمو مكانتهم.

2 - إنه نداء قد صدر من الله الخالق القادر المدبر الرازق. أليس جديراً بأن يصرف المنادين عن كل ما يقع بين أيديهم سوى ما يحويه الدرس الإلهي من توجيه؟ بلى، إنه كذلك.

(1) سورة التوبة، الآية: 123.

(2) سورة النساء، الآيات: 70-72.

فالتوجيه قد وصفهم فألبسهم ثوب الإيمان؛ ليشعرهم بألا سبيل لهم غير الامتثال لما يؤمرون به من إعداد للدفاع عن نصاعة هذا الثوب ونقائه.

3 - ثم يكشف الدرس الغطاء عمن يتثاقلون، ويمعن في التصريح بأنهم - منكم - إنهم معكم داخل الصفوف مندسون. يسمعون منكم يتحدثون إليكم يرقبون خطواتكم، إذا أصبتم فرحوا، وإذا غنمتم تمتوا أن لو كانوا من الظافرين.

وهكذا لم تتخلف القاعدة جبلة في صنف من الناس راسخة لا يمكن أن تنسلخ عنهم ولا هم عنها بمنسلخين. وهؤلاء هم الذين يُسمون في لغة العصر: بمروّجي الحرب النفسية في الجبهة الداخلية، كبث الفرقة بين الصفوف، وتبسيط العزائم، والتقليل من شأن الاستعداد لزعزعة الثقة بالنفس، حتى تصبح الجبهة في حالة يأس وانفعال شديد يوهن حركتها ويشلّ فعاليتها القتالية.

وقد أطلق القرآن على هذا الصنف اسم «المعوقين»

ورسم لهم أشنع صورة: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورًا أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾⁽¹⁾ أما في حالة ذهاب الخوف: فإن ألسنتهم سليطة شديدة الإيذاء والسوء.

وتارة يُوصفون بأنهم مرضى القلوب، فإذا ذكر القتال عادت إليهم تلك الحالة: نظرات خائفة مرعوبة مضطربة ترتعش في أحداقها فزعة وجلة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ﴾⁽²⁾.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 19.

(2) سورة محمد، الآية: 21.

مواقف للتمحيص والابتلاء:

الإعداد لتأدية فريضة الجهاد لا يتم إلا عن طريق التربية العملية المتصلة التي تكشف عن حقيقة النفس البشرية فتسقط التي يتضح أنها لا تملك القدرة الإيمانية على المواجهة، وتحول بينها وبين خوض المعركة؛ لأنها لو لم تفرز لاعتبرت من ضمن القوة التي أعدت وليس من مقومات الإعداد أن يضم الضعف الذي يقود إلى الهزيمة والفشل؛ فالقوة - إذن - تكمن في الاصطفاء ولن يتحقق ذلك إلا إذا تمت الغرلة من كل الشوائب العالقة بمصدرها لينطلق تيارها في مجراه نقيًا صافيًا:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّكَلَّفُوا اللَّهَ كَمِيزٍ قَلِيلًا غَلَبَتْ فِيهِمْ كَثِيرَةٌ يَأِذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُمْ بِأَذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دِفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ۚ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝﴾ (1).

1 - لقد كان التمهيد للدرس هذه الجولة صحوة الإيمان عند بني إسرائيل حيث رغبوا في أن يبعث لهم قائد يتولّى تنظيم صفوفهم؛ ليستردوا حقهم المغتصب ويثأروا ممن ظلمهم واعتدى عليهم. فقد كانوا في

(1) سورة البقرة، الآيات: 247-249.

نقاشهم لقضيتهم مندفعين بحماس المؤمن وعزيمة الواثق بنفسه، حتى إنهم أبدوا الأسباب التي تسوّغ لهم اللقاء بأعدائهم..

فهم قد أخرجوا من ديارهم، هم وأبناؤهم بقوة السلاح، ولم يقولوا هذه المرة كما قالوا لموسى من قبل ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (1).

وحين يكتب عليهم القتال فماذا يحدث يا ترى؟

2 - إن الدرس يعرض هذه النماذج في إطارها الاجتماعي موضعاً مصادر تكوينها النفسي في ضوء طبيعتها الخوارة إزاء الجدّ إذا جدّ. والحقيقة القتالية إذا أسفرت عن وجهها الصارم حيث لا تبقى في الميدان سوى الفئة القليلة ثابتة الأقدام راسخة الجنان.

3 - وبعد التمهيد يقدم الدرس وسيلة الايضاح بظلالها وألوانها ولمساتها، تحمل صورة القائد وهو يسير بجنوده لملاقاة العدو، ولم تكن دعوتهم للجهاد عن كره وإجبار، بل عن طوعية ورضا واختيار.

4 - ويقف القائد ليعلن أن الاختبار سيكون عسيراً. إغراء لا يقاومه إلا من تنبع إرادته من إيمان يتّصل مدده بالله عز وجل: نهر يتدفق مأؤه نقيّاً صافياً عذباً نديّاً، إنه الحياة، فمن يتشبّث بها ويحبّها فما من صبر يحول بينه وبين أن يعبّ من مائه عبّاً.

والذي يفعل إنما يرسب في الامتحان؛ لأنه غير قادر على مواجهة الموت، ومن لا يحرص على الموت فلا توهب له الحياة.

ومن الناس من يضع للحياة معنى يراه من ثقب ضيق في محيطه. وما رؤيته في الحقيقة سوى سراب، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ قَوْلَهُ حِسَابَ اللَّهِ سَرِيعَ الْحِسَابِ﴾ (2).

(1) سورة المائدة، الآية: 26.

(2) سورة النور، الآية: 38.

5 - أما النوع الثاني، كما وضح الدرس، فهو الذي نقّذ الأمر ممثلاً لما صدر عن القيادة؛ لأنه أدرك بعمق محتوى الدرس، وفهم أن حقيقة الحياة ليست في تلك الشربة، ولكنها فيما وراء ذلك: في عظمة الانتصار في ترسيخ المثل، في إرساء دعائم القيم الرفيعة في الدفاع عن سمو المبادئ، في إحقاق الحق ورفع راية العدل، في الاستشهاد الذي يحمل كنه الحياة الدائمة بكل أبعاده.

6 - النوع الثالث، فهو الأقل تحملاً، وهو يمثل المستوى الذي لم يحتل رأس قائمة النجاح، ولم يكن في ذيلها، ولكنه كان في موقعه الذي يسمح له أن يجتاز مع الذين اجتازوا؛ لذلك أبدى تخوفه من عدوه الذي رأى أن في عدّته ضخامة، وفي عدده مهابة، وقد فاتته ما ذكر به من قبل الذين امتلأت قلوبهم بحبّ الله، وغمرت نفوسهم السكينة والثبات؛ لأنهم أيقنوا أن النصر من عند الله، وأن القاعدة الإلهية هي أن تكون الفئة المؤمنة قليلة؛ لأن مساحة القمة لا تتسع إلا لمن صعد يرومها مهما كانت مشقة الطريق، وأحس في أعماقه بقوة تفوق قوة الواقع المنظور.

7 - ولقد أرشد الدرس إلى أن القائد المختار لم تهزه الخلخلة التي وقعت بين صفوف المقاتلين نتيجة الغرلة التي اقتضتها عملية الإعداد. لقد تخلف الكثيرون. فلو واصلوا مسيرة الجهاد فماذا هم فاعلون؟ إنهم لن يزيدوا المؤمنين إلا خبالاً وتوهيناً وتثبيطاً. ولكن الله كره انبعاثهم فكفى المؤمنين فتنتهم ووقاهم عدوى جنبهم وخذلانهم، قعدوا حيث هم يستمتعون بمنظر الماء الجاري الذي يستهوي ذوي النفوس الضعيفة.

8 - إن مصدر الثقة بالنفس مستمد من ينبوع الثقة بالله، وهذه الثقة هي السبيل الوحيد الذي يربط المقاتل بأسباب النصر. فحيثما توافرت كان النصر حقيقة واقعة تعيش بين صفوف المقاتلين وتحيا في أعماق نفوسهم نوراً يكشف لهم مقدار قوتهم، ولو كانوا فئة قليلة وضالة عدوهم ولو كان جالوت وجنوده.

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَرُمٌ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ
كَثِيرَةٍ يَا ذُرِّيَّ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (1)

9 - إن الغلبة حقيقة لا ريب فيها ولا مرأى فهي لم تكن من صنع التقدم العسكري أو تفوق في العدة والعدد المظهري ولكنها من صنع الله، فهو المخطط، وهو الذي يختار من يتولّى القيام بالمهمة لتتم من خلاله عملية التنفيذ، مهمة سحق الباطل ونشر الحق.

ومن يختار فلا يمكن أن يتخلّى عن أصفياه يدافع عنهم أينما كانوا، ويدفعهم بصبرهم ومعينته إلى النصر المبين.

10 - إن المقاتلين ليرفعون شعار المعركة وهم لا يزالون في خطوتهم الأولى، فحين تلمس أقدامهم أرض القتال والمبارزة لم ينسوا أنهم إنما يقاتلون بإذن الله الذي ربّاهم في مدرسة الجهاد فأحسن تربيتهم القتالية وتدريبهم على الصبر والجلد والتحمل في أخرج الساعات وأعصب المواقف، ألسنتهم ترتفع بنغمة متسقة متألّفة تهز أوتار القلوب.

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا...﴾ لجوء لا ينقطع، واتصال لا يعرف الانفصام. إنه نداء صادر من قلوب تفيض بحب الذي ربّاهما؛ ليفرغ عليها من وافر الصبر ما يغمرها بمسكوب السكينة والاطمئنان.

11 - ﴿وَكُنْتُمْ أَفْدَامَنَا﴾ والثبات هنا عنصر من العناصر التي تفتح باب النصر وتشد من أزر المقاتلين في ميدان المعركة، فالمرحلة الأولى، صبر على مكاره الحرب وهولها وشدائدها.

أما الثانية؛ فهي صمود وكفاح حتى لا تتزلزل الأرض من تحت أقدامهم، إنه الشباب المطلوب في مثل هذا الموقف وفي غيره من مواقف الحياة

(1) سورة البقرة، الآية: 247.

المتعددة، ثبات على المبدأ، ثبات في حالة الزهو بالنصر حتى لا يداخل النفس الغرور والعجب، ثبات اليد عند تسديد ضرب أهداف الأعداء. ثبات الجنان واللسان عند القول والطعان:

﴿يَتَّبِعْتِ اللَّهَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِيءَ الْآخِرَةِ وَضَلَّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾⁽¹⁾.

12 - ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

النتيجة المرتقبة التي يحس بلذتها المؤمنون وينتشي بعدوبة مذاقها المكافحون. كفر، وإيمان، ونصر، وهزيمة ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومن هنا يبدأ درس آخر للتربية والإعداد: إعداد «داود» عليه السلام. إنه لم يكن سوى جندي صغير تحت قيادة «طالوت» لا رتب ولا خطوط. ولكن نقطة البداية تبدأ من أرض المعركة تلك منذ الساعة التي شهدت الجولة الأولى لمبارزة «جالوت» الطاغية الجبار القوي - ومن من المقاتلين كان يتوقع تلك النهاية: أن يقتل داود «جالوت»؟

وما دامت الهزيمة بإذن الله فلم لا يكون القتل بإذن الله؟ ولكن من خلال الذي بُدئ في تأهيله وإعداده.

﴿وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾⁽²⁾.

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾⁽³⁾.

أول فصل الدرس كان قتلاً للظلم وقضاء على الطغيان واجتثاثاً لنبتة الشر، واقتلاعاً لجرثومة الفساد، ليصفو الجو الذي تنمو فيه نبتة الخير، ويخلو

(1) سورة ابراهيم، الآية: 29.

(2) سورة الأنفال، الآية: 17.

(3) سورة البقرة، الآية: 249.

الميدان من كل المعوقات وغبش التصوّرات الزائفة، لتتابع بعد ذلك بقية الفصول تنتشّق عبير الملك والحكمة والمعرفة؛ ليصبح ذكّم الجندي الصغير وارثاً لملك كبير وعلم غزير، حيث يؤسّس دولته على ركيزتين: العلم والإيمان.

وهكذا يتم الاختيار الإلهي كما تم من قبل لـ «طالوت» ذي البسطة في العلم والجسم؛ ليبقى التدافع بين معسكري الخير والشر قائماً جِفاظاً على سلامة الأرض واتزانها حتى لا تميد وتتصدع، بل تثبت، ولكنها مؤارة بحركة الحياة، زاخرة بمواكب المتسابقين في قوافل تسعى وتتزاحم لتمكين لبنات الخير بالجهاد الدؤوب لإزالة ركام الشر والبغي.

التوجيه في ميدان النفس:

في الجهاد الأكبر جهاد النفس حيث يجوس التوجيه خلال أعماقها؛ ليضع لها بوابة التوقف التي ترصد الحركة وتحدد الاتجاه وتفحص زاد الطريق حتى لا يكون به ما يسيء ويؤذي. أو يخنق المسيرة ويكسر الشوكة. فلا بد إذن من التصفية والتنقية والتطهير لتسلم مظلة الدعوة من ثقوب الكيد والخيلاء.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ خُذِينَ إِذْ أَجْبَيْتُكُمْ كَثَرْتُمْ قُلُوبَكُمْ عَنْكُمْ شَيْعاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٧ (١).

1 - لفظة توجيهية مثيرة موحية، ساقها الدرس في افتتاحيته التمهيدية اقتباساً من واقعهم التاريخي الذي لم يفصلهم عنه سوى فترة زمنية قريبة جداً في

(1) سورة التوبة، الآيات: 25-27.

سلسلة حياتهم الكفاحية. تترأى لهم إذ يشاهدها حسهم ويوقظها في نفوسهم أثرها الطيب، فنشوة النصر لم تزل تحيا في كيانهم تألقاً وزهواً. وإن الزهو ليخلب النفس فيضع الغلالة التي تحول دون وضوح الرؤية. فمن كان النصر؟ أبكثركم في العدد؟ أم بقوة عدتكم أحرزتم تلك الانتصارات؟

لا. ليس كما يتوهم البعض. فالدرس إذن، يستلّ الإجابة العملية من أعماق نفوسكم يقوّمها، يُريها الحقيقة تمشي بين صفوفكم.

2 - إنه العجب الذي يتسلّل كاللص في الخفاء فيلابس النفس ليحجب عنها وهج الحقيقة. إنه الانبهار الذي يأسرهما، فيصنع لها قالباً من الاختيال والكبر ثم يقود إلى التعلق بالمعجب به إلى درجة التخلّي نهائياً عن أخصّ خصائصها.

3 - في بداية الموقف يتحوّل الاتجاه الى الانفعال بالكثرة، ويتخلف الشعار الحقيقي الذي يجب أن يُرفع:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾⁽¹⁾

وخطر هذا التحوّل يعم الجميع فلا يعرف الاستثناء؛ لأنه ناشئ عن خلل في أعماق النفس؛ لذا كان التوجيه قاسياً في ميدانه، ففي لمح البصر ما كان رؤى وردية بات أشباحاً مخيفة.

فأين سعة الأرض وبراوحها؟ وأين آفاقها الفسيحة؟ لقد ضاقت حتى أصبحت ككفة الحابل فلم يعد بها موقع قدم لتلك الكثرة التي كانت تحتفي بها أرض شاسعة الأطراف. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مَذْبِرِينَ﴾⁽²⁾ إنه لمشهد يشير الرعب والفرع!!! مؤمنون يديرون ظهورهم هاربين، عجب ينشأ عنه عجب! ولكن الدرس يكشف عن السبب؛ ليكون درساً يحمل التوجيه الذي يجوس خلال أعماق النفس في

(1) سورة البقرة، الآية: 248.

كل المواقف وعلى جميع المستويات أفراداً وجماعات ليعد بذور الغرور والعجب المقيت.

4 - ويثبت رسول الله صلوات الله عليه، وتثبت من حوله الفئة القليلة التي لم تضق أمامها أرض المعركة؛ فهي في أرجائها واسعة، وفي آفاقها منبسطة تحتفل بالصامدين؛ لأن الشعار الحقيقي ظل ماثلاً فلم يتحوّل ولم يصب بخلل الإعجاب بالكثرة. وفي خضم التجربة العملية تبرز حقيقة التوجيه الإلهي لتنتشل من استولت عليهم غفوة الإعجاب برهة فتردّهم إلى صحتهم، وتقرر أن الكثرة لم تغن شيئاً إذا قادت إلى الانحراف الذي يؤدّي إلى الهزيمة؛ لأنها غالباً ما تضمّ بين صفوفها من لا يرى الأمور إلا من إطارها الخارجي، دون أن يدرك عمق الحقيقة التي تصله بربه وتربطه بأسباب النصر في ساعة العسرة والتحام الصفوف.

وهكذا نجد القاعدة التي لا تتخلّف، وهي أن الطليعة دائماً تكون في المقدمة لتحمي العقيدة وتصدع بكلمة الحق لتنال رضا الله الذي يمدّها بنصر من عنده؛ لأنها ضحّت في سبيله وكافحت تبتغي وجهه الكريم، فباب مغفرته مفتوح لمن يخطئ فيتوب.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (1). إذن فشمولية التربية قد أقرّها المنهج القرآني، لكي يظاهر كل جزء منها أخاه: فصفاء النفس إلى جانب نقاوة الضمير وطهارة الوجدان قرينة بتحرير العقل من كل الأهواء والقيود. إذا تم هذا الانسجام . وهو شرط أساسي في تحقيق النصر الذي يريده الله . التأم عقد الأمة واختفى النصر المزيف الذي يحجب ملامح الحق حيث يتركز الصراع على قاعدة الأضداد وسط دائرة الباطل ليتفاني الباطلان ويتطاحن الشران.

(1) سورة التوبة، الآية: 27.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّغُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾
 إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾⁽¹⁾.

1 - يبدأ الدرس بالتذكير. والتذكير إنما لفت للانتباه وإثارة للاهتمام، وعنصر من عناصر الربط لسلسلة الأفكار التي يتوقف توضيحها على تداعيتها لتجذب المتلقي إلى دائرة التفاعل مع جزئيات المعلومة.

2 - كما أن تحديد الوقت يعطي الفاعلية للحركة، نحو الاتجاه التنظيمي والإشراف المباشر من قبل القائد، حيث يغادر أهله في وقت مبكر قد تستدعي حاجتهم بقاءه، ولكن عظمة المهمة تقصر دونها الحاجات.

3 - إن توزيع المسؤوليات أمر لا غنى عنه في عملية الإعداد، ولا سيما العسكري، إذ به يتم إسناد المهمات لذوي التخصصات المختلفة.

وكذلك تحديد الأمكنة على أرضية المعركة؛ ليكون التحرك حذراً داخل الخطوط المرسومة ووفق مقتضيات الظروف التي ترصدها طبيعة الموقف.

لذا، نجد التعبير بكلمة ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ موحياً بقطعية الأمر التي تفيد تأكيد الثبات في ميدان الدرس مهما كانت قسوة التجربة؛ لأن تهينة المقعد حينما تكون للمؤمنين إنما تعني التمكين وعدم التقهقر.

4 - ورغم الدقة التنظيمية التي اتسم بها الدرس في تحضيره؛ فقد كاد الفشل أن يطل برأسه لولا أن من الله على المؤمنين، إذ وقاهم شر الوقوع في هوة التخاذل والجبن، وأوضح لهم أن السيطرة على النفس قوة من أعظم القوى في ميدان المعركة.

وأن التحكم في نزواتها زاد يتزود به المقاتل، وسبيل إلى امتثال أمر القيادة

(1) سورة آل عمران، الآيات: 121-123.

والتقيّد بتوجيهاتها؛ لأن بداية الإعداد إنما تتحرّك في انطلاقتها من قاعدة النفس، أفراداً وأمة، حيث تتجاذب حلقات الدرس لتلتقي حول محور واحد، مرتبة متناسقة: الإيمان، التوكّل على الله، التقوى والشكر، الاطمئنان والصبر.

هذه الأسس لا بد أن تحيا مع أفراد الأمة. يعيشها الفرد، أولاً في موقفه داخل نفسه، ثم في موقفه ثانياً إزاء الآخرين. وليس من كمال الإيمان أن تظلّ حبيسة قوقعة النية الحسنة والأفكار الطيبة.

ولكنّ تجسّد أعمالاً تنطق بالقوة المتدفقة بدماء الحياة التي خطّ سبيلها المنهج القرآني ليحيها المؤمن الذي لا يعرف الوهن حين يقدم ولا للحزن منفذ إلى قلبه؛ لأنه لن يُغلب، إما أن ينتصر وإما أن يظفر بالشهادة.

أمران لا ثالث لهما: «النصر أو الشهادة»

﴿ فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1).

5 - ولقد ثبت أن هزيمة النفس أمام الهوى والشهوات والمغريات أشد خطراً وأسوأ أثراً في ميدان القتال؛ لأن هزيمتها تجرّدها من عناصر القوة وتسلبها جرأة الاقتحام، حيث تقعد مع القاعدين في مستنقع الهوان، لذلك توخى التوجيه الإلهي في المنعطف الأول للطريق أن يدرأ الفشل فيستلّ مخالفه من بين صفوف الأمة بولاية الله وعونه.

ولكن للدرس بقيّة وللتوجيه جولة، حيث يمتدّ الدرب بالقافلة؛ ليأتي المنعطف الثاني الذي قد أصاب القوم من شرّه رذاذ.

فكانت الحصيلة ذات مغزى عميق في محيط الأمة التي تلتبس العلم والمعرفة من مواقف القتال، إذ يبدو سرّ الخلل الذي وقع بما نسي المتبوءون

(1) سورة النساء، الآية: 73.

ما أمروا به عند ذاك الصباح، فتركوا مقاعدهم خالية في قاعة الدرس وبخلوها
تنفتح الثغرة للأعداء الذين التفوا حولها ينشدون بغيتهم في أمل قد لاح بين
صفوف من المقاعد خالية.

وتحين الفرصة للمفاجأة في خضم الاضطراب الذي اندلعت ألسنته من
جوف الطمع المادي الذي لاح في أفق المعركة، قائماً متجهماً متوعداً ألا
يفلت من قبضته الحديدية إلا من كان بقلبه قبس من قبسات الإيمان.

ولو لم يحدث الذي حدث ما كان للدرس بالغ الأثر في ميدان التربية
النفسية.

ومن ثم ندرك أن فتنة المال معول هدم وجراثومة فساد. لقد تكرر التحذير من
خطرها بالرغم من أن المال قد اعتبر في الكفة المساوية للنفس في فريضة
الجهاد.

صحيح أن المال قد يهبط الطريق للتضحية بالنفس لستمع بالنعيم
المقيم.

ولا أحد ينكر أن للمال وجهاً آخر فاتناً براقاً، حيث يصبح غاية تتلهى به
النفس عن القيمة الحقيقية التي لا تقاس بالمقاييس المادية. وتلك القيمة
هي التي تخطّ طريق النصر. لأن للنصر سبيلاً قد رسمته إرادة الله، ولن يتم
تنفيذ ما أَرادَه الله إلا إذا تطهرت نفس المؤمن في مختلف مجالات حياتها
مما يذلها لشهوة جمع المال التي تُقَطع ما أمر الله به أن يُوصل.

المنهج القرآني والواقع البشري

الواقع البشري لا ينكره المنهج ولكنه لا يقرّ التماذي والغلو في آفاق
البشرية، تلك التي تنسى الإنسان أنه مخلوق أنيطت به رسالة نبيلة ترخص في
سبيل تحقيقها حياته الفانية.

فحين يفرض القتال يعترف صراحة بأن النفس تكرهه. وهذا الكره المسموح

به في الواقع البشري يجعل المتأمل بعيداً عن منطقة الاضطراب النفسي والعصبي. فهو إذن، علاج إيجابي يخفف من وطأة الألم الذي لا يحس مرارة مذاقه إلا من كابد مشقة الحرب وخاض غمارها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (1).

1 - يسجل الدرس هنا فرضية الجهاد مؤكدة. ولم يقف عند نقطة عرض المعلومة في إطار توجيهها الإجماري، ولكنه يدي ما تنطوي عليه النفس من إحساس داخلي. وهذا واقع لا بد من التعامل معه في مثل هذا الموقف، لكي يتخذ منه منطلقاً ومرتقى لتحقيق المثل الأعلى.

2 - وإن يك الدرس قد عرّى الطبيعة البشرية، فإنه في الوقت نفسه قد وضع العلاج الذي يضمن لها الشفاء الواقعي من كل ما من شأنه أن يكون لإصابته أثر شائن.

3 - لقد أقرّ أحقية الكراهية للقتال، لما فيه من مشقة وعنت وتضحية، ولكن ليست أحقية مطلقة، بل قيدت بأن لا تتجاوز محيط الشعور؛ لأن ظواهر الأمور التي تُرى إنما تختفي وراءها حقائق هي في ميزان الله صلاح وخير.

إذن، فالمقاييس في النهاية إنما ترجع إلى الله الذي خلق الحياة كلها ومنح من الهبات ما يدفع الموهوبين إلى تنفيذ أمره لإحراز النصر الذي وعد به المؤمنين.

وكم في واقع الإنسان من أشياء يحبها لميزة تترآى له، فيقبل عليها بشغف، ثم لا تلبث أن تبدو على حقيقتها قبحاً وعبئاً، عندئذ تخبو جذوة الشغف وتخمد شرارة الحب.

(1) سورة البقرة، الآية: 214.

وهناك أشياء يراها قاتمة فيبذل الجهد والوقت في العزوف عنها لكرهها، حتى إذا ما انجلت الأمور من غبشها وضبابها تبين أن في حكمه خطأ، وأن في كرهه مجانية للصواب، وود لو أنه أحب الذي كره وكره ما أحب. وقد يكون الدواء مر المذاق كرهه الرائحة تعافه النفس، ولكن في مرارته تكمن الصحة، وفي كره رائحته العافية للنفس التي تعاف وتتقزز.

إذن، إن للأشياء بواطن وغايات بعيدة لا تقع في محيط علم الإنسان، فيغيب كنهها ويختفي لبها لحكمة يعلمها الله وحده، حيث يضع لها مقاديرها ويؤقت مواقيتها؛ لتتم إرادته وفق ما تقتضيه حكمته، وليكون المؤمن في إقباله راضياً مطمئن النفس في إقدامه على التضحية، وهو موقن من أن لا وراء في صدق الوثيقة التي سجلها القرآن الكريم وهي تثبت - بلا ريب - أبدية الحياة للشهداء وهم عند ربهم يرزقون.

وأي حياة أجل وأعظم؟ وأي رزق أرغد وأطيب؟ ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾⁽¹⁾.

وقد فهم المؤمنون عمق ما احتواه الدرس، فكان ذلك سداً منيعاً لمنافذ الكره، وصداً لروافده، وتجفيفاً لمنابعه.

حيث لمسة الإيمان قد لامست قلوب أولئك الذين كان الواحد منهم يقول: أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقتل هذا الرجل أو يقتلني؟ ثم يلقي بنفسه في المعركة فيستشهد وهو قرير العين!.

وذاك آخر يُلقى بثمرات من رُذنه قائلاً: بخ بخ فلم يحل بيني وبين الجنة إلا أكل هذه الثمرات فيندفع إلى أتون المعركة يضرب بسيفه حتى يستشهد وهو مزهو فرح مستبشر بما أسبغ عليه الله من نعمه التي لا تحصى.

(1) سورة آل عمران، الآية: 169.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾

إنها الحقيقة التي لا يدرك عمق معناها غير المؤمن الذي أسلم وجهه لله وهو محسن.

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾⁽²⁾.

ويمضي المنهج القرآني منبهاً الذين لا يعلمون إلى الحد الذي تقف عنده حقيقة علمهم في دائرة ما تدركه عقولهم من جانب المحدود المتصل بواقعهم، حيث ينتقي لهم من الألفاظ ذات الدلالة الموحية بما تتعلق به النفس البشرية من كسب مادي في محيط دوافعها وحاجاتها الجسدية. ثم يتحول بها إلى تصحيح المفاهيم التي ترتقي وتعلو عن الطبيعة المادية في جانب هبوطها ومخابىء خبثها ومهاوي هلاكها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ ١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ ١١ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَذْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ ١٢ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾⁽³⁾.

1 - يمتد النداء الإلهي مستخدماً الأداة الدالة على تنبيه من بُعد؛ ليقبل. ولم يكن المكان قصيًّا ولكن البعد كان بعد منزلة وسمو مكانة، ليشعرهم بصفة الإيمان التي تضعهم في المكان اللائق. ليقول لهم: أنتم أهل لأن تستجيبوا ولأن ترفهوا السمع، ولأن تقبلوا فتقبلوا ما يلقي إليكم من ألوان الهدى وضروب المعرفة.

(1) سورة البقرة، الآية: 214.

(2) سورة لقمان، الآية: 21.

(3) سورة الصف، الآيات: 10-13.

2 - وحين تتم التهيئة في جوّها النفسي يسوق الدرس المعلومة في صيغة الاستفهام لتقف النفس وكأنها في مفترق الطرق تلتمس الرشاد والنصح متطلعة مترقبة، وإذا بالدلالة التي تعني الهداية برفق ولين تأتي في لحظتها.

ولكن علام؟ على تجارة. وأي تجارة؟ ألك التي عرفت في أسواقهم: بيع وشراء وثمان وسلعة؟
أم أنها من نوع آخر؟

إن واقعهم الذي يحتضنهم لا يرون فيه سوى صورة تجارتهم بمفهومها. بسوقها تلك، بممارساتها اللاهثة وراء الكسب الرخيص والربح الهابط.

3 - وبعد السير الحثيث في ساحة الواقع المحدود يسطع نور الحقيقة كاشفاً مفهوم التجارة التي يفوز في رحابها المؤمن بموفر الخير وعميم الثواب، حيث تستلمه أرجوحة النجاة من العذاب المؤلم والعقاب الموجه.

ثم يضع الدرس اللبنة الأولى في بناء المفهوم الحقيقي؛ فهي ليست ديناراً ولا درهماً، ولكنها إيمان ينسكب في القلب نوراً، وفي النفس سكينه، وفي الروح رضا وارتياحاً.

ولم تكن لبنة الإيمان هذه قد غربت عن أذهانهم؛ فهي في أول الدرس عنوان وسمة ويسموا بها ليأتي من بعدها - تنسيقاً - ما يستوجب توجيههم إلى مرفأ السلام.

4 - ثم أعيدت لتكون القاعدة التي تنهض بعبء البناء مستقرّاً في شموخه، صامداً في مواجهته لأشرس التحديات وأعتاها لؤماً وخبثاً. وأعيدت أيضاً ليكتمل عنصر التشويق الذي يأسر النفس فتضلّ في لهفة ترقبها وامقة - لترى وهي تسعد - اللبنة الثانية تُحمل لتحل مكانها في بناء المفهوم الحقيقي.

5 - وعقب الإيمان تساق لبنة الجهاد بصيغة الفعل المضارع؛ ليفيد التجدد والاستمرار.

وهذا ملحظ جدير بالاهتمام ولفت الانتباه، إذ مع كل مطلع شمس تبدو له صور في ثوبها من الجديد فنون - وفي النفس البشرية من ألوان الصراع أضرب تبعاً لتغيرات الحياة في زحفها المتطور. لذا سلك المنهج في علاجه لموضوع الجهاد درب التكرار لتوثيق الصلة بين التخطيط والتنفيذ. كما عمد في تعقيبه إلى التأكيد على نوع الجزاء بطريقة المقارنة التي تقود إلى المفاضلة.

تيسيراً لأداة الفهم البشري، واستمالة للنفس المتطلعة دوماً إلى الحافز الذي يدفعها إلى المزيد من بذل الجهد، ويحضّنها على مواصلة العمل عن قناعة ورضاً نظيفة السريرة سليمة الطويّة.

6 - ومن خصائص المنهج كذلك لجوؤه إلى التفصيل بعد أن يطرق الموضوع أولاً - مجملًا؛ لأن شوق النفس ينمو متصاعداً في بداية المرحلة، وكلما ارتقى درجة تمكّن المعنى وتأكد حتى لم تبق ثغرة للتسرّب أو منفذ للتسلّل: - مغفرة الذنوب، الجنة ذات الأنهار، المساكن الطيبة المريحة. إنها قائمة المكافأة السخيّة التي تمنح لمن تحمله أرجوحة النجاة.

7 - وفي اللّمسة الختامية من لمسات الدرس، يعود الهتاف بواقع النفس البشرية؛ ليدكرها بما تحبّ، كما ذكرها من قبل في مسيرتها - بما تكره، لكي تدرك أن في استقامتها علوّاً، وأن في تطبيقها لمفردات المنهج فتحاً ونصراً.

﴿وَأُخْرَىٰ تَحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (1).

إنها البشارة بما تحبون وقد يكون الكره عائقاً للبشارة إذا أقعدكم فقيّد

(1) سورة الصف، الآية: 13.

خطواتكم الأولى حيث لم يعد للقافلة أمان، ولا للطريق وضوح، فلا نصر ولا فتح ولا بشارة. ويقف عندئذ الدليل؛ لينفض من حوله إلى جهة هم باتجاهها - لا محالة - هالكون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (23) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (1).

1 - يرتفع الصوت الإلهي منادياً من توسم فيهم الاستجابة ولمح في ملامحهم آية الخضوع والانقياد لما نهوا عنه؛ فقد ارتبط النداء بالتحذير في هذه الجولة لا بالاغراء كالجولة السابقة حيث وضع معالم تحدّد وشائج القربى وتضبط علاقة المسلم بغيره في المجتمع الإسلامي، ولم يكن لهذه العلاقة من مصدر يغذيها بعناصر النمو والبقاء سوى الإيمان.

فهو التربية الصالحة التي تجد في أحضانها النفس المؤمنة الاطمئنان والرضا، وتمتص من ثبايا عطفه رحيق السكينة ودفع الاستقرار.

أما إذا خلا القلب من نور الإيمان وجفت حنايا النفس من سكينة العقيدة فلا عبرة بنسب ولا اكتراث بقربى ولا مؤول على آصرة من دم؛ لأن الأب لم يعد أباً، وكيف يكون الأخ أخاً وقلبه قد ملئ كفرةً، ونفسه مشحونة حقداً.

فالكفر هو الحد الفاصل الذي ينبت على أديمه جبل المودة، وتنقسم على أرصفته عرى البر، وينفرط على قاعه عقد المناصرة والموالاتة.

(1) سورة التوبة، الآيتان: 23، 24.

2 - إن الدرس في توجيهه ليلفتنا إلى أن للآباء سلطة التأثير وحق الطاعة.

ولكن هناك فرقاً بين الطاعة في أمور الدنيا والطاعة عندما تدخل في دائرة العقيدة، أو في جانب يتعلق بنصرتها والذود عن كيان الأمة التي حملت مسؤولية نشرها. فموقف المؤمن هنا موقف دقيق يتطلب حكمة تُقتبس أصولها من المنهج الإلهي ليتّم بذلك السير النقي الحذر الذي يخلو - في مختلف مراحل - من حرج العواطف الإنسانية وصدامها الذي يؤدي إلى كبت مشاعر الحنان والعطف في البنية والأبوة على السواء.

لذا نرى المنهج القرآني قد دعا إلى الحفاظ على المصاحبة بالمعروف في الدنيا.

والمعروف هنا في مفهومه لا يرقى إلى مستوى النصرة والموالاة وإلقاء المودة المتضمنين إفشاء الأسرار العسكرية؛ لأن الكتمان في هذا الشأن - فضلاً عن كونه واجباً دينياً - هو ركن كذلك من أركان الجهاد في شتى مراحل.

3 - ثم يعطف التوجيه الإلهي، فيذكر ثمانية أنواع هي بمثابة المرتكزات التي تستهوي النفس البشرية في محيطها الاجتماعي، وهي أيضاً تمثل الدعائم التي تحمل بناء المجتمع الإنساني: فحب الابن أباه والأب ابنه حب فطري مركوز في وجدان كل مخلوق، وحاجة نفسية لا تنفك عن الطبيعة الحيّة الواعية التي تنبعث منها الخلية الأولى للمجتمع.

كما أن الأخ يلتقي مع أخيه في وشيجة الرحم، فهما صنوان وإفان في مسيرة الحياة، وليس لأحدهما غنى عن الآخر.

4 - ثم تأتي مرتبة الزوجة مكمّن العطف ومنبع الحنان ومأوى السكن والاستقرار. فهي مصدر الحب ومبعث الألفة، وهي الشجرة التي تمتدّ من أصولها فروع؛ لتكوّن العشيرة التي تشبع حاجة الفرد كعضو في انتمائه للجماعة، ووعيه بأن باندماجه يشعر بالاعتزاز يغمر نفسه ويحس بأنه مدعوم بقوة الجماعة وهذا الإحساس يؤدي إلى تعميق معنى الهوية

الاجتماعية التي يفيدنا: «علم النفس» بأنها تعني التقمص النفسي للجماعة نتيجة الأثر المباشر الذي يحتوي الفرد فيجعله في حالة انجذاب مستمر بحبه الذي لا ينقطع.

5 - وحب المال والحرص على جمعه لا يمارى فيه أحد، ولا يحتاج إلى دليل. فالواقع يسوق ألف دليل، وفي النفس منها على صدقه خير دليل.

ولم تكن التجارة هذه كتلك التي وردت في معرض الدلالات المنجية. ولكن التجارة هذه المرة؛ إنها تجارة الكسب المادي والكساد والبوار، الكسب الملقى في الدرك الأسفل من النار، المردى في محرقة العذاب إن رأى الكاسب أنه غاية.

أما المساكن التي ترضونها في هذه الدنيا فهي قد استهوتكم بزخرفها، وبهرجها، وبريقها ولمعانها. فما قيمة ذلك كله إزاء المساكن الطيبة؟ وأين هي؟ إنها في جنات عدن.

6 - كل هذه الأنواع وضعت مجتمعة في كفة وقدمت للنفس البشرية أمامها استقرت بكل ما تحويه من جواذب، وما تشتمل عليه من إغراءات الشهوة وبريق الزينة ولذائذ المتعة. هذه كفة.

وماذا في الكفة الأخرى من ميزان الله؟

إنه حب الله ورسوله وجهاد في سبيله.

إن خدعتم ببريق الشهوة إن أخذتم إلى الأرض إن لم تعو الدرس:

﴿فَتَرَبُّوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (1).

(1) سورة التوبة، الآية: 24.

اللائحة التنظيمية للاجتماعات

بلغا العصر يمكن أن نسمي ذلك التنظيم الذي سجله التوجيه الإلهي: ليضع ملامح الاختصاصات المحددة في تطبيقها لكل عضو من أعضاء المجتمع، وكذلك لكل من توكل إليه مهمة تحمّل عبء المسؤولية في أي مجال من مجالات الحياة.

إنه يرسم للفرد إطاره التنظيمي الذي تسمح له حريته أن يتحرك داخله، حيث يشعر بأن لتلك الحرية مقداراً لا يتجاوز ما يناط به من مسؤولية.

فالحُر، إذن، هو الذي يكون مسؤولاً، وليس لأحد ما أن يتصور أن الحرية مفصولة في جوهرها عن المسؤولية. وعندما ينتاب المرء، أيّاً كان، إحساس بأنه غير مسؤول يرتمي - ولو لم يبدو له - في أحضان العبودية التي تدفع إلى التخلّي عن وظيفة الكمال البشري.

تلك المرتبة التي هيأها المنهج القرآني للإنسان الذي يستحقّها، ويكون استحقاقه عن جدارة إذا قبل تحمّل عبء مسؤوليته برضى واختيار. عندئذ ينال المدح؛ لأنه حرّ.

ولقد مُدح الإنسان وُدْم؛ لأنه للكمال البشري أهل، وللنقص كذلك، بما فطر عليه من استعداد لكل منهما.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ قَاذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٠﴾ * لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّأْتُمْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

1 - تقرير اللائحة في مقدمتها الحقيقة الأولى، حيث اكتفت - موجزة - بتسليط الضوء على توضيح صفة الإيمان الكفيلة بأن تثير في أذهان المؤمنين عوامل التشويق للهيئة الجو المناسب للانتقال إلى المدخل الذي أُعدَّ لتقدّم المعلومة في سياقها مرتبة في فصولها.

2 - ثم يأتي بعد ذلك توضيح السبب الداعي للاجتماع. إذ هو أمر ذو أهمية بالغة يتطلب من كل فرد المبادرة بالحضور وليس للمتخلف عذر. فمبدأ الحضور غير قابل للرفض؛ لأن الأمر أمر جامع. فالقضايا التي تطرح ليست هيئة في موضوعها؛ لذلك يتحتم على من امتلأ قلبه بنور الإيمان ألا يتخلّى عن مناقشتها بجديّة وحزم، حتى ينال شرف المشاركة الفاعلة كعضو عامل من أجل إسعاد الجماعة المؤمنة.

3 - إن المعية التي توتّحها الدرس إنما تُوحى بشدة تماسك أفراد الجماعة من حيث الطاعة والاحترام المتبادل، وتقدير كل منهما للآخر، وامثالهم جميعاً لأمر النبي صلوات الله عليه، والتزامهم بتطبيق الأسس التربوية التي تنمّ من خلال عملية التفاعل المتمثلة في الآتي:

الانسجام، التعبير عن الرضا بطريقة عملية، ترسيخ علاقات الألفة والمحبة.

هذه الأسس تدفع الفرد إلى قبول التضحية في سبيل الله والجهد الدائب لرفع راية الحق والعدل عن قناعة وطوعية. بيدي رأيه، وليس لرأيه من المتعصبين يناقش رأي الآخرين عن روية وأناة، يجيد السماع كما يحسن الإجابة.

وإذا رأى أن في الأمر مصلحة للجماعة أثرها وهو راض طيب النفس.

(1) سورة النور، الآيات: 60-62.

وحين يلجأ إلى ما يعود على ذاته بالخير، إنما يلجأ إليه من خلال الفائدة التي ينال الجماعة من ثمرتها أوفر نصيب؛ لذلك لم يذهب حتى يستأذن. فطلب الإذن، إذن، عنوان على الطاعة، وما الطاعة إلا ثمرة من ثمرات الإيمان.

4 - ﴿قِيَادَ اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾⁽¹⁾

تتنوع مصالح الأفراد كما تختلف حاجاتهم وفق تجدد ظروف الحياة الذي لا ينقطع تياره.

ولم يكن المنهج القرآني بمعزل عن حياة البشر، بل إنه يحيها بكل ملاساتها؛ ليضع للأفراد نظامهم حسب طاقاتهم وقدراتهم، وليعيش في نفوسهم وداخل ضمائرهم يعالج قضاياهم، أفراداً، ولم يدهم - هملاً - مجتمعين.

5 - وإذا كانت الحقيقة الأولى قد قررت في سياقها خبراً، فإن ما يتعلق بمن أوكلت إليه مهمة إدارة الجلسة إنما قررت بصيغة الأمر.

أمر إلهي صدر إلى النبي صلوات الله عليه، وقد تضمن تفويضاً ﴿فَأَذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ...﴾⁽²⁾

أنت وحدك الذي تقدر ظروف ملتزمي الانصراف. وبعد، فلك أن تتصور مدى ما تصل إليه هذه التربية النفسية في تدرجها من عمق وشمول في مجال التوجيه الاجتماعي بهدف إقامة جسور المحبة بين أعضاء الجماعة وقادتهم.

وتأتي لفظة أخرى بارعة بلمستها، خفيفة بديعة، وهي الأمر بالاستغفار إشارة إلى أن مغادرة قاعة الاجتماع يجب أن تُحصر في حدودها الضيقة بعذرها القهري كي تسد منافذ التقصير، فلا يعتذر إلا من ليس له مندوحة لقهر العذر.

(1) سورة النور، الآية: 60.

(2) سورة النور، الآية: 60.

6 - وتتلحق خطوات الدرس لترسي القاعدة التربوية، وهي توقيير النبي ﷺ، لتبقى منزلة المربي رفيعة الشأن في نفوس المُرَبَّين، وبذلك يستشعرون هيئته عندما يكون الخطاب مباشراً، هيبة الاحترام والتقدير لا هيبة الملوك الجبابرة الناتجة عن الخوف والرعب.

وهذه القاعدة التي تحدّد العلاقة الطيبة بين المعلم والمتعلم مهمّة جدّاً؛ لأنها تعتبر اللبنة الأولى في سلوك الفرد وحياة المجتمع الذي ينشد المتعة والعزة والرقى.

7 - ثم تأتي التعرية والمواجهة الصريحة التي تزيح أغطية النفاق وأردية الخداع، حيث لم يبق للتسلّل ستر؛ فإن الحركة تنكشف بحقارتها والتخلي بجبته، ودناءة الإعراض بلونها القاتم؛ فقد وجب العقاب إذن، إما فتنة تصيبيهم ففسد أمرهم وتختل في اضطرابها موازين الحياة. وإما عذاب أليم تطبق عليهم شدته في دنياهم وآخرتهم.

ثم تطل خاتمة الدرس متضمّنة لفت الانتباه إلى أن الله الذي خلق، فرّبى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿قَدْ عَلِمَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يَزْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْبِتُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (1).

إن المنهج القرآني حين يضع الأسس التي يتكوّن منها منهج تربيتنا إنما يستخلصها من شتى مواقف حياتنا.

فمن خلال عبادتنا نجد أنفسنا عندما نقرأ القرآن في صلاتنا أو في جوف من ليل أو ضحى من نهار - وقد طاف بنا في مسارب من الحياة متعددة:

(1) سورة النور، الآية: 62.

يرشدنا إلى النظر فيما حولنا من بديع صنع الله يلفتنا إلى داخل نفوسنا وما تنطوي عليه.

يحثنا على العمل كطريق يؤدي إلى سعادة الدارين يضع أيدينا على مختلف الأنظمة التي تمس حياتنا مشا مباشراً، نحس بها في يومنا الحاضر، وندركها فيما مضى من أيامنا، ونتمثلها في غدنا القريب والبعيد.

موضوعات يبرزها لنا القرآن، نتلوها بتدبر وعمق: في الجهاد والاقتصاد في علاقاتنا العامة والخاصة، في محيط الأسرة والمجتمع والأمة. يعالج القضايا الصغيرة كما يعالجها وهي جليلة ذات خطر، حتى في تربيتنا المنزلية يضع لنا أنماطاً من السلوك، وتوقيتاً للاستئذان لكي تتشرب نفوس أطفالنا منذ النشأة الأولى أجمل الخلق وأطيب الأثر للسلوك الرفيع.

وقد سُميت تلك الأوقات عورات؛ لأنها مظنة انكشاف العورات فيها.

والإنسان قد يكره أن يرى ابنه الصغير منظرًا لا يتفق مع سنه من حيث الأدب واللياقة؛ لأن لذلك أثراً سيئاً، وانطباعاً قد يبقى في النفس الصغيرة حيث يخرج في كبرها قبيح قول وشنيع عمل.

ولقد ذهب «علم النفس» في تحليلاته إلى أن المشاهد الخالية من اللياقة ينطبع أثرها السيء في نفوس الأطفال صغيراً، ثم يتنامى حتى يصبح مرضاً نفسياً وعصبياً يستعصي علاجه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽²⁷⁾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْجِعُوا فَانْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ⁽¹⁾

(1) سورة النور، الآيتان: 27، 28.

1 - لم يحد الدرس عن المقدمة التنبؤية المصحوبة بصفة الإيمان المحببة للنفس؛ ليسوق المطلوب في إطار السلب المقيّد بغاية.

والسلب، هدم لواقع قد فسد؛ ليأتي من بعده بناء جديد صالح مشحون بالأنس والسلام؛ لذلك كان التعبير بالاستثناس مشعراً بالأنس الذي يغمر القلب، فيخفّ أهل البيت مرحبين بزائرهم وملء أفئدتهم البشر والحبور.

2 - فالاستثناس، إذن، جواز يسيح لك أن تمرّ وأنت تحسّ بالأمن؛ لأنه استعذان رقيق لطيف يزيل الوحشة التي ربما يأتي بها الطارق.

3 - وإذا لم يكن هناك استعداد للاستقبال: فلا حرج على أهل البيت أن يبدوا عذرهم فلهم ظروفهم الخاصة ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْزِعُوا فَانْزِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

فلا تثريب على أهل البيت إن قالوا لزائرهم إرجع، وليس من خلق القرآن أن يكره الزائر كلمة «إرجع» أو يستاء مما يدل عليه تلميحاً أو تصريحاً.

وليس كذلك أن يؤوب وفي نفسه شيء من الموجدة على أخيه؛ لأن المسلم نظيف القلب، صريح اللسان، كما أراده المنهج القرآني الذي يهدف في تفاصيل درسه إلى ترسيخ الوثام في واقع الإنسان، حتى لا يقرر مبدأ هو في واقع البشر وهم وخيال.

فهو لا يريد أن يستخفي أحد من الناس ولا يستخفي من الله خالقه. ولا يودّ أن يكون للمسلم باطن يدسّ بين طياته ما لا يظهره حتى لا ينضم إلى قائمة المنافقين.

والله لا يستحي من الحق

وينتقل التوجيه إلى بيت النبي صلوات الله عليه، ليلفت الانتباه إلى أن هناك مفاهيم جديدة وسلوكاً يجب أن يراعى، وطرقاً ذات صنوف من اللياقة

والآداب العامة ينبغي أن تدخل حياة المسلم ليؤلف منها منهجاً يسير على ضوئه ويعمل بهديه، ليكون في محيطه ممدوحاً وفي واقع أمته فرداً صالحاً، وعضواً نافعاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ
نَظِيرِهَا إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْنِسِينَ
لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ
الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ
لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ
مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝١١﴾ إِن تَبْدُوا شَيْئًا
أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝١٢﴾ (1).

1 - تأتي مقدمة الدرس مألوفة - كما سبق - لتنبه وتوقظ وتشوق، فتساق
بأسلوب يحمل التودد والتلطف؛ لتضع المخاطبين في من تفرض عليه
صفته أن يستجيب لما يدعى إليه وتترك ما هو غير لائق من عادات في
حياته الجديدة التي أرسى قواعدها رب العالمين؛ ليكون المؤمن سوياً
في خلقه، سوياً في فكره ونفسه، سوياً في جسمه وروحه.

2 - وفي جو المقدمة نجد التوجيه الإلهي يتجه مباشرة إلى ترسيخ المعلومة
بطريقة النهي التي تعني السلب ثم الانتقاض بـ «إلا» ليأتي من بعدها
التعقيب بالإذن صريحاً من رب البيت.

وإن تقرير الحقيقة بهذا الأسلوب قد أكسبها قيمة ذات إحياء نفسي عميق
حيث بُدئ بالمطلق، ثم انسحب القيد في توضيحه متدرجاً، ولا مرأى في أن
مثل هذا الأسلوب أوقع في النفس من حيث تصعيد عامل التشويق إلى البديل
المنتظر.

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 53، 54.

ولا سيما أن الإذن هذه المرة يأتي مشوباً بالدعوة إلى الطعام؛ لذا كان الدرس صريحاً في تسليط الضوء على المشهد بصورته ذات الحركة الحيّة: تبرز الذين ينتظرون نضجه، وقد استمروا القعدة، والتصقوا بالأرض، واستطابت نفوسهم ذلك الجو المريح.

3 - ثم تجيء اللقطة الحاسمة؛ ليضع الدرس من خلال ومضتها اللبنة التربوية مرتبة متعاقبة بشرطها في تقارب زمني دقيق يدعو إلى شدة الانتباه وخفة الحركة والتيقظ الذكي اللبّق انسجاماً مع مشاعر الآخرين، لتكتمل دائرة الخلق الكريم، بسموها ورفعتها وبعدها عن كل ما يشين من مغريات الاسترخاء والكسل، كالاستئناس الذي يؤذي النبي صلوات الله عليه.

وهناك فرق بين أن يكون الاستئناس سبباً في إيذاء الآخرين، أو أن يكون دافعاً لتقوية روابط المودة والإلفة، وتوطيد العلاقات الأخوية بين الزائر والمزور.

4 - ويمضي الدرس فيضع الحاجز الذي يضبط بدقة كيفية التعامل حفاظاً على سلامة بناء الأسرة وضماناً لبقاء سياج العفة شامخاً بطهره نقياً بصفائه.

فطهارة القلوب إنما هي الحجرة الأولى التي تقام عليها المؤسسة التربوية. ولكي تشع بنور هذا الطهر، فلا بد، إذن، من التزامها بتطبيق القواعد التي أرساها المنهج القرآني في محيط الأسرة والمجتمع ثم الأمة، في اتساع دائرتها، حيث تستقرّ في نظام الحياة الخاصة والعامة، يمارسها المسلم كقانون نافذ في يومه وغده حتى لا يقع في حرج الشبهة الذي لا مكان له في المجتمع النظيف الطاهر. حيث ينمو نموه الطبيعي في ظل المناعة الأخلاقية ضد أي مرض اجتماعي يتسرّب إليه عن طريق العدوى، وافدة أم قاعدة؟

فالحضوع في القول مُغري يغري مرضى القلوب الطامعين. ولأن المجتمع لا يخلو من الذين في قلوبهم مرض، كان العلاج في اتجاهه الهادف اتّجهاً مباشراً لاستئصال السبب ووأده في مهده حتى لا تبقى للشر جذور.

فالقول باق، لأنه ليس في الإمكان أن يتصور أحد إطلاقاً حياة بدون قول، وإنما الحياة بقولها.

ولكن أحداً لا ينكر أن للأخلاق الكريمة حدوداً تقف عندها تصرفات المؤمنين، حيث يستلهمون من إشارات محاسن الأعمال، ويستوضحون بقياساتها مواقع أقدامهم حتى لا تزل:

لينطلقوا وملء صدورهم شفاء بخلق القرآن، وليس في قولهم خضوع، ولا في حديثهم خنوع بل قوة في القول، وقوة في العمل، وقوة في الفكر والنفس معاً؛ لأن الله الذي خلق الإنسان إنما خلقه فأناط به مسؤولية بعد أن أودع فيه الاستعداد لأهلية تحمّلها فنال بذلك التكريم على سائر المخلوقات من ذي حياة أو غير ذي حياة:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْجَنُودِ وَرَدَدْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁽¹⁾.

القيمة التربوية المستخلصة مما تقدم:

1 - إن للمنزل حرمة، وللأسرة نظاماً، والعلاقة الطيبة التي تنشأ بين الأفراد في مثل هذا المناخ إنما ترجع في أصلها وجوهرها إلى مصدر الأخلاق الكريمة التي ارتضاها الخالق لخلقه؛ لينظموا مسيرة حياتهم.

2 - إن للتربية بُعداً مكانياً. فمن مدرسة البيت وبين جدرانها تبدأ، حيث النموذج الصالح والقدوة الحسنة والأمثلة الطيبة، يحييها المربي مُبْلاً حية تسعى بنورها يتبادلها الأحياء ويتناقلونها قيماً رفيعة.

ولا يكفي أن تبقى هذه الأخلاق الكريمة منطوية داخل نفسية الفرد أو تجمد بين جدران البيت، وإنما المطلوب أن تمتدّ بخيوطها فتغطي ساحة الأمة مكاناً وزماناً عبر المساحات أفقيّاً ورأسياً معاً.

(1) سورة الاسراء، الآية: 70.

ولا يكفي أن تقف دون أن تدفع بقوتها أفراد المجتمع إلى نيل أرقى مستوى من العلم في مختلف مجالات الحياة؛ لأن الأمة لا يمكن أن تحقق ما تصبو إليه من رقي إلا إذا سارت متزنة القوام، حيث تأمن عثار الطغيان فتجد - بجدها في رحاب الخلق الكريم - ما يساعدها على أن تمسك بخيط الصعود، إمعاناً في حفظ التوازن الذي لا يقر شدة الجذب، كما لا يقر لين الإرخاء.

4 - توقيير الرسول صلوات الله عليه، وتجنّب ما يؤدي إلى الخروج عن دائرة الأدب التي رسمت مظاهرها بطريقة عملية تطبيقية.

فقد جرت حوادث المخالفة والخطأ مصحوبة بلفت النظر والانذار وطلب الكف عن ممارستها مع الإشارة إلى البديل والاتجاه السليم، من حيث تحسين العلاقة بين المربي الذي من مهمته الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

والمُرَبّي الذي يقف وهو يحسّ بحاجة الماسّة إلى أن تتشرب نفسه عملياً رحيق هذا الخلق العظيم. ولكي تتم عملية التشرب هذه، فلا بد من تهيئة الوعاء الزمني لعرض المشهد بكل حركته التصويرية.

فهذا نداء يصدر من وراء الحجرات مزعجاً نابياً مقتحماً هدوء البيت وأمنه. وذاك صوت يرتفع عالياً فيغلق بصداه الآذان ويؤدي المشاعر.

وآخر يجهر بالقول في انفلات غير مميّز ولا مقدر لما ينبغي أن يراعى في مثل ذلك الموقف من حسن اللياقة وجمال الأدب.

ومن يصدر حكمه في سبق وتسرع بغير أن يتحرّى الحقيقة، أو يتروى في عرض أي خبر من الأخبار التي قد تأتي بها هواتف الخيال والوهم.

وربما لا يغرب عن الأذهان وجود مثل هذه الصور في حياتنا الحاضرة. فكثيراً ما نرى ذلك في واقعنا. ولا يندر أن نشاهدها في مجالسنا الخاصة والعامة. ورغم إدراكنا الجازم لمثل هذه الأخطاء، فإننا نجد أنفسنا عاجزين -

في كثير من الأحيان - عن تعديل ما يجب تعديله وفق ما يهدف إليه المنهج القرآني من توجيهنا إلى اتباع أفضل الطرق وأجمل الأدب في ما يتعلق بأسلوب نقاشنا لقضايانا الاجتماعية، أو فيما يخص ما نتناقله من أخبار شفاهة لترسلها الألسنة بعد تلقفها، مزيفة مزخرفة لتستقر، وقد بادر سامعوها - إلا قليلاً منهم - بتصديقها دون أن يدعوها تمر على مسبار عقولهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيِّنَاتٍ يَدَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَقْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥﴾ (١).

وتنطلق ومضات المنهج القرآني لتغمر قاعة الدرس بعد أن سجل لكلا الفريقين موقعهما، فرغب أعمق الترغيب وأندر أعظم الإنذار ثم أوضح أن التقوى لا تمس قلب المؤمن إلا إذا اختبر وامتنح ليوسع - بإعداده - لفيض هذه الكلمة: كلمة التقوى التي يستحقها من سعى لها سعيها وجد كادحاً حتى التقى معها على درب العمل الصالح.

فالتقوى هي التي تصوغ المؤمن ليكون مؤمناً في نظره إذا نظر، وفي سمعه إذا هو سمع.

وفي حديثه إذ تحدّث جهر به أم أسر؟

فملء سمعه إيمان، وملء بصره كذلك، حتى في جلسته يتخيّر الجلسة المؤمنة حيث يحتفى به كمؤمن ملتزم بأداب الإسلام ليكون أهلاً لكل توقير وتبجيل.

(١) سورة الحجرات، الآيات: 1-5.

فلا إشراقة لمجد، ولا تألق لتقدم إلا في أحضان الأخلاق الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَعَّوْا فِي الْجَعْلِيسِ قَامُوا يَسْمَعِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَأْتَاكُمْ الرِّسَالُ فَقَدْ مَوَّاتِينَ يَدَيْكُمْ مَخْلُوكٌ مَخْلُوكٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَظْهَرٌ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ (1).

1 - في قاعة الدرس يُنادي المؤمنون النداء الذي تتعلّق به النفس المطمئنة وترتاح إليه وتألّفه شغوفاً متلهفة لسماعه؛ لأنه كلما تكرّر في عودته الميمونة أتى بالجديد المحبّب واللذيد الممتع.

إنه يبعث في نفوسهم العزّة يتبسّع خطاهم خطوة خطوة، هناك يضع لهم الطريقة العملية لتنظيم صفوفهم عند لقاء الأعداء.

أما هنا فإنه ينتقل إلى لون آخر من التنظيم في مجالس العلم والأنس، يعلمهم كيف تكون الفسحة في النفس قبل أن تكون في المكان؟

إنها فسحة التسامح والإيثار، بها تسري روح المودّة بين أفراد الجماعة.

2 - إن المبادرة بتنفيذ الأمر إنما تعني الطاعة العملية التي تقابل بالفسحة الإلهية ﴿يَسْمَعِ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ أكرم بها وأعظم! وفيهم؟ ولمن؟

إنها للذين تخلّصوا من أنانيتهم، فجعلوا من قلوبهم أوسع مكان لإخوتهم الذين يفهمون أن الحياة إيثار وبرّ، ويفقهون أن البرّ لا يقف بمفهومه عند تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب، فهو ليس مظهراً وحركة وشكلاً وصورة.

ولكنه إيمان يتغلغل في أعماق النفس ونور يقذف في القلب فيفيض عملاً في حياة الفرد والمجتمع. إن حقيقة البرّ هي خشوع وانقياد في صلاة هي

(1) سورة المجادلة، الآيتان: 11، 12.

ليست بحركات الجوارح يمنية ويسرة، وإنما هي صلاة ذات حركة حية واتجاه واستشعار لعظمة خالق الكون وأثر يُبرز النقطة التي تلتقي فيها القيم الروحية بمجالات الحياة، حيث يتجدد من خلال هذا اللقاء المستوى الأخلاقي فيما يؤدّيه الفرد من عمل صالح.

3 - وإذا اقتضت دواعي التنظيم أن يتخلّى المسلم عن مكانه لأخيه، فإن عليه أن يغتنم فرصة الظفر بالمكافأة المجزية؛ ليرتفع شأنه عند الله وتعلو درجاته جزاء تواضعه.

والمنهج القرآني، عندما يرسم خطوط الإجراء التنظيمي لحلقات الدرس، إنما يقصد من وراء ذلك ترسيخ الحقائق التالية:

1 - أن يحيي في ضمير الفرد والجماعة النزعة الإنسانية عن طريق تربية النفوس وتهذيبها حيث يربط بين تقديم المعلومة والمكافأة لتتم عملية الاستجابة في جو من الارتياح وحسن القبول.

2 - أن يعلم المؤمن أن العلم ليس حشواً للمعلومات بمعزل عن السلوك والتطبيق العملي، ولكنه حقائق تحيا لتحدد الاتجاهات وتكسب المهارات.

3 - أن يتجنب المؤمن ذو الخلق الكريم مزاحمة أخيه، لا سيما في حلقات التعلم وأماكن العبادة التي يتبادر إلى أذهان البعض أن المزاحمة مطلوبة في مثل هذه المواقف مع أنها إيذاء مُنهى عنه وصورة مُثيرة تنافى وخلق القرآن.

درس المناجاة:

درس المناجاة أو الدرس الخصوصي قد يبدو شبه بين هذا وذاك، غير أنه في كل الوجوه لا يُرى وإن يكن في بعضها اختلاف، فإنه قد يلحظ في الوسيلة والغاية معاً ويلحظ كذلك في الرفعة والضعفة.

وفي ساعة اللقاء تلك وساعات الدرس الراهنة في عصرنا الحاضر.

وإذا انتقلنا في رحلة ذهنية عبر المسافة الزمنية، تمثّلنا المشهد وهو يزخر بالحياة والحركة بالصوت والصورة، تمثّلناه يتّسع لكل الأسس التربوية وهي تمارس عملياً من خلال تلك المواقف حيث يسعى المؤمن جاداً، ملتصقاً بالانفراد بالنبي صلوات الله عليه، يودّ متلهفاً ليناجيه في شأن من شؤونه الخاصة ليحظى بتوجيهاته ويتلمّس الرشد في رأيه والسداد في نصحه في خلوة، بعيداً عن جو الدرس العام الذي لا يخلو، ربما من بعض التهيب البريء، ولكن ليس من حق الفرد أن يستأثر بوقت هو ملك للجماعة، وإن كان له في مجموعته مشاعاً دقائق معدودة.

أما أن يشعر بقيمة الوقت كما يشاء وأن يتدرّج معها في عظمتها كيفما يروق له؛ فهذا أمر لا يحق لأحد إنكاره، وليس من المسموح أن يعترف به للآخرين ما دام قد تربطه بهم أواصر، هي بعري الأخلاق الكريمة موصولة.

وبهذه الاعتبارات مجتمعة قرر المنهج القرآني تأدية مبلغ من مال الدين يودّون حضور درس المناجاة صدقة يأخذها من هو في حاجة إليها حقاً معلوماً، ترسيخاً لقواعد الألفة والمودة بين أفراد الجماعة وتطهيراً للنفوس من سخائم البخل والشح.

﴿فَقَدْ مَوَّابِينَ يَدِيْكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرُ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (1).

أما من لم يجد ما يقدمه: لضيق ذات يده فإنه يعفى ولا حرج مع بقاء حقه مضموناً مكفولاً فيما يرغب فيه من مناجاة الرسول صلوات الله عليه، فلا يكلف ما لا يطيق، ولا يحرم من حق تمتّع به غيره.

(1) سورة المجادلة، الآية: 12.

وهذا قمة التيسير في مجال التربية، وقمة العدل الاجتماعي، وقمة التسامح وغيرها من القمم الشوامخ التي وسعتها جميعاً مغفرة الله ورحمته.

وليتهدي بنورها المؤمن ويتعلمها من خلال ما يبذل من جهدٍ مضمّن في سبيل استيعابه لتلك القيم التي يتلقاها وهو في قاعة الدرس، إذ أن الوسط الاجتماعي هو المحكّ الحقيقي والتربة الخصبة التي تتوافر بين ذراتها عناصر التغذية السليمة لنمو نبتة الأخلاق الكريمة.

﴿إِن تَشَقَّقُوا أَن تُتَدَمَّوا ابْنِينَ يَدْعِي بَنُو لَكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَنَادَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (1).

1 - ويتدرّج الدرس في علاجه لقضية صدقة المناجاة، فيعفى من لم يجد، حيث يبقى من بيده يؤدّي كلما سنحت له فرصة اللقاء منفرداً برسول الله صلوات الله عليه؛ لأن الدرس يريد أن يتعلّم المؤمنون أن للوقت قيمة، ويريدهم أيضاً أن يفقهوا أن مهمة الرسول أجلّ وأعظم من أن تكون في لقاء عابر بفرد.

2 - إن الخوف ليتسرّب إلى نفوس المؤمنين كلما تجدد اللقاء من أن أمر الصدقة قد يشقّ عليهم ويثقل كاهلهم فلعلّ عبئه مرهق تزيده الأيام وتضاعفه توقعات النفس البشرية، وإنما الله الذي خلقها خبير بخطراتها، عليم بسبحاتها؛ لذا قرّر مجانيّة درس المناجاة للجميع ليزيل أسباب الخوف ويقتلع عوامل الإشفاق ويوجّه إلى ما يطهّر القلب.

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر

ومن أبرز سمات المنهج القرآني التيسير وتجنّب الحرج؛ ليقبل المؤمن ممثلاً وهو يحسّ بأنه يعمل باختياره حرّاً في ظل إيمانه بقدر الله، كما يوقن

(1) سورة المجادلة، الآية: 13.

بأن القدرة الممنوحة له إنما هي هبة من عند خالقه، وبأن الحفاظ على سلامتها أمانة ثمينة يجب أن تصان وأن تحمل لتؤدي طاهرة نقية خالية من كل سوء؛ لأن الله لم يرد أن يرهق عباده ولم يشأ أن يحملهم ما لا يطيقون؛ فقد راعى في تكليفهم مقدار استعدادهم حيث يسير كمًّا وكيفاً وفق ظروف الحياة التي ترسم خطوطها متطلبات المجتمع بفئاته المتنوعة.

﴿ إِنَّ ذَلِكَ يَعْلَمُ آتَكَ تَقْوَمُ أَذْنِي مِنْ ثَلَاثِي اللَّيْلِ وَيَضِئُ وَثَلَاثَةُ وَطَائِفَةٍ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِيمٌ أَنْ تُخْضَوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَافْرُءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْفَرِّ أَنْ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْغَبٌ وَآخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَافْرُءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرْنًا حَسَنًا وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ حَيْرٍ تَحِدُّهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)

1 - افتتاحية الدرس هذه المرة تنطلق مباشرة من القاعدة التربوية في أسلوبها المشعر بلمسة التخفيف برؤاها وبربها الذي يشفي علة العنت والمشقة، ويقف بالنفس المؤمنة عند الحد الذي يوقظها إلى أن البواعث والأهداف والغايات لا تنفصم بعراها عن الدائرة التي يرسم خطوطها القرآن الكريم.

2 - لذا واكب التوجيه المرحلة التطبيقية ليلفت النظر إلى تحري الدقة في شمولية التطبيق لكل جزء من جزئيات العمل المؤدّي، وكذا الوقت المستنفد؛ لأن أي زيادة أو نقص أنما يؤدّي إلى ترجيح إحدى كفتي التوازن، ثم إلى الخلل الذي يصيب النفس بالوهن؛ لأن النفس طاقة محدودة يدركها الملل كي يعتريها الفتور، فهي كالبدن تملّ فتتشد الراحة وتروم التجديد وتلدّ بالتنويع، وأي إرهاق ضاغط إنما تنعكس آثاره سلباً على مقومات العقيدة.

(1) سورة المزمل، الآية: 20.

وإن الإهمال كذلك؛ فهو يفضي إلى الذبول والفناء. إذن فحاجة العقيدة إلى غذاء ضرورة حتمية، وغذاؤها كزاد مستمر من العمل الذي لا ينقطع تياره في اعتداله ذي المستوى المتناغم الذي لا نشاز فيه.

وما الزاد؟

إنه العبادة بحركاتها وأقوالها، وبمفهومها الواسع كل عمل صالح يراد به وجه الله.

3 - إن لقيام الليل أثراً بالغاً في تكوين الشخصية وتربية النفس وصقلها وتهذيبها من حيث الإعداد للقيام بالمهمات الجسام.

فالجَنُوب إذ تتجافى عن المضاجع استجابة لنداء الله ورفضاً لإغراء دفء الفراش إنما تنعم بالروح والثقة، وهذه الثقة تكسبها القدرة على تحمّل المشاق والصمود في مواجهة الصعاب التي تعترض سبيل نشر الدعوة. ولكن، ما صلة قيام الليل هذا بتلك الدعوة؟

وبم يتحقق القيام؟

إن الصلة وثيقة، فهي كالمقدمة بالنسبة للنتيجة. فالقيام مرحلة من مراحل الإعداد لبناء الشخصية، ودرس عملي لتوجيه النفس إلى الوعي المستمر بما يحويه المنهج القرآني من أسس تستقطب جميع ميادين الحياة، أسلوباً ووسيلة وتخطيطاً وتنفيذاً. وقيام الليل إنما يتحقق بترتيل القرآن، وكلمة الترتيل لا تعني في مدلولها اللغوي إلا الترتيب والتنسيق.

وما يُرتَّب ويُستَق فهو واضح بتفاصيله، بارز بمعالمه، لأن الترتيل مأخوذ من رتل ف «ثغر رتل» بمعنى ثغر مفلج: بين أسنانه شيء من التباعد، ومن ذلك قيل كلام رتل إذا كان واضحاً مفصلاً؛ لذا كان الأمر بالترتيل ليكتمل الجانب التأهيلي في بداية الدعوة باستيعاب الأسس المكونة لعناصر العقيدة التي تجعل النفس في اتصال مباشر بالقدرة الإلهية وهذا الاتصال الروحي المتمثل في الصلاة إنما يجنبها الوقوع في دائرة الوحشة والاكتئاب ويبعدها عن مطارق الجَزَع والهلع؛ لأنها بالصلاة لا تعرف اليأس.

4 - ﴿وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ..﴾ (1)

هذه الطائفة هي التي حظيت بشرف المعية، ولكنها معية التكليف لا معية التبذل والترفع، إنها معية الصحبة الدائمة في الامتثال والطاعة، فلا الزمان يقطعها ولا المكان بقادر على فصلها؛ فهي موصولة الحلقات، لأن الطائفة لم تزل باقية وللدرس حافظة، فالدرس في مستوى القدرة التي ينبغي أن تدخر للجهد بشمولية أنواعه.

كما أن هناك مقتضيات تقتضيها ظروف الحياة ولا سبيل إلى إغفالها. والله لا يريد إلا أن تسير الحياة في اتزانها، لا شطط ولا توقف، حتى يبقى الظهور ولا يستنفد الجهد.

فمن الناس من يسعى في طلب الرزق وهم المنتجون الذين ينهضون بعبء اقتصاد الأمة لحفظ كيائها وصون حريتها.

أما غيرهم من أعجزهم المرض؛ فهم الفئة التي لا قدرة لها على مواصلة القيام. إنها جديرة بللمسة العطف والتخفيف.

﴿وَالْآخَرُونَ يقاتلون فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (2)

إنها الفئة التي تتولى حماية الأرض والعرض ترسيخاً لجذور العقيدة لثمر، واستجادة للتنظيم الإلهي الذي أراد من الأمة في واقعها ووفق معطياتها أن تكون - يداً تضع اللبنة، ويداً تصونها، ويداً تذود عنها زياد الحريص على مكتسباته، المحب لمقتنياته، المتفاني في خدمة أمته وتنمية منجزاته.

5 - ومن أجل ذلك كان التوجيه الإلهي يستهدف إيقاظ العواطف الدينية التي من أهم العناصر وأقواها أثراً في تكوين شخصية المسلم حيث تجعله ذا هدف، سوياً في شخصه.

(1) سورة المزمل، الآية: 20 .

(2) سورة المزمل، الآية: 20 .

ولقد أفاد «علم النفس» بأن الشخص السوي هو الذي يكون له هدف مقبول اجتماعيًا، تتركز حوله فاعلياته وتتجمع وتتوحد. وإن نمو هذه الشخصية لا يكتمل إلا بالتحدي الدائم لذاتها والعمل على إصلاح عيوبها. ومن الركائز الأساسية التي رسخها المنهج القرآني في هذا الصدد: الاستقامة التي من مقوماتها إصلاح النفس وتزكيتها؛ والمصدر الذي لا ينفد مدده في تغذية هذه الاستقامة إنما هو الصلاة، فهي التي تخلق في الإنسان عقيدة إطاعة أوامر الله؛ لأنها عن منكر القول وفحش العمل ناهية.

وهي بأقوالها وأفعالها واتصالها المتجدد إنما تلخص لنا جميع مكتشفات علم النفس الحديث الذي يقول: «لن يتسنى لنا الحصول على الشخصية الناجحة أو الخلق القويم عن طريق التأمل الباطني الصرف بل عن طريق تدريب النفس وتهذيبها وحكمها والسيطرة عليها».

6 - إن خاتمة الدرس بعد الفراغ من توضيح واقع الأمة بفئاتها تتركز في عملية التيسير بخفة لمستها ولطف عبارتها الشائقة ولأنه تيسير لم يكن محدداً في كفه، بل ترك تقديره اختياراً وتطوعاً لمن لا يألو جهداً حسب قدرته أن يأتي بشيء ويكون هو نفسه عنه راضياً.

وعقب الأمر بالتيسير تتلاحق الأوامر مترابطة لترسي قواعد التنظيم، وليكون التوجيه الأخير إلى الاستغفار ليشعر المؤمنون بافتقارهم الدائم إلى الله جلّت قدرته وليجعلهم يحسون بأن ما ييدر منهم من تقصير فإن لهم في غفران الله ورحمته متسعاً ولن تضيق رحمته في وجه من جاء من عباده تائباً مستغفراً.

حقيقة الإنسان:

يكشف التوجيه الإلهي حقيقة الإنسان من حيث هو بشر في بشريته جنف وشطط، فيرسم لهذه الحقيقة صورة واضحة بلونها وظللها وحركتها، ذات تعبير دقيق عن حالتي يسره وعسره، وضيقه وسعته.

إنه ينأى في إعراضه إذا مسّه فيض من خير، ويعود مستكيناً في خضوعه إن

لمسته من الشر لفحة أو من الألم وخزة، ينسى فيوغل في نسيانه؛ لأنه اشتتم في نفسه رائحة من غنى، ويطغى في عتوه مدفوعاً بدافع من الغرور الذي يسلمه إلى محفة العجب والاختيال.

ولم يكن الإنسان في مسيرته بقادر على المضي قدماً نحو الهدف المنشود دون أن يمنح من نور الله ما يشدّ رشده ويثبت خطاه. وما كان الله يريد أن يغويه أو يضلّه بعد هدي ولكنه الإنسان في طبيعته الكنود الجاحدة.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝ أَمْ هُوَ قَانِتٌ ۚ إِنَّا آتَاءُ الْبَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَخْذَرُ أَهْلَ الْآخِرَةِ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾ (1)

1 - إن الأفتنة لتسقط عن الحقيقة البشرية فتبرز في غير وجل ولا خجل حين يخذلها شيء من نوائب الدهر وعاديات الزمن ونكبات الليالي، فهي عندئذ تلجأ جزعة إلى ساحة ربها تائباً أوابة تدعو مخلصاً تلتصق النجاة، حتى إذا انكشف الضر ولمست أقدامها برّ الأمان عادت فكان لها مع الله موقف الجحود المنكر.

2 - إن النعمة لتقلب نقمة على الإنسان ذي الميول المنحرفة، والعقل الجحود بغشاوة الجهل التي تطمس حقائق الأشياء وتجعل من عقله عقلاً لا يرى الأمور إلا من ثقبها البائس الشقي، ولا ينظر إذا نظر إلا بعين تعسة تنقلب به في مهاوي المقت واللعة، حيث يتخذ من هواه إلهاً، ومن ماله معبوداً، ومن علمه وثناً يجثو تحت أقدامه، ومن جاهه ينسج رداء

(1) سورة الزمر، الآيتان: 9، 10.

يعلو به في سماء الغرور والاختيال، عندئذ ينسى بدايته وتغيب عن إدراكه النهاية التي تنتظره - وهو يتمتع بكفره - وليس عن مصيره بعيد. فلهب النار المحرق يستقبله ليكرم وفادته ويحسن صحبته.

3 - أما النموذج الآخر، فهو المثل الأعلى للصالح الذي تنبثق من شخصيته مجموعة الصفات التي تحدّد أبرز معالم الانقياد والخضوع وأوضح ملامح الحذر والرجاء. إنها تتذكر حين ينسى الآخرون، وتعلم حيث يجهل من ليس له في الدرس نصيب ولا في المعلومة حظ:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّكُمْ تَزَكَّوْنَ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ (1)

والتذكّر هو الذي يجعل الإنسان ذا العقل السليم دائم الصلة برّبّه لا يحد عن التعلّق به قيد أنملة، وبهذه الصلة تتحقّق الغايات التي تكتمل بها عناصر شخصية المسلم. فيحيا ضميره؛ لأن الضمير هو الضوء الأحمر الذي يرسل وميضه منطلقاً من أعماق الإنسان الرشيد ليقول له: قف فإن في مواصلة سيرك خطراً ثم يؤنبه على فعل قد فعل بخطأ هو عن طريق الحق بعيد.

ومن يعيش بضمير حي بعقيدته فإنما يتذوق ثمرة السعادة النفسية واطمئنان القلب وشفائه

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (2).

ولقد ثبت بالدليل الملموس القاطع من خلال التجارب في ميدان الطب أن القلق والهم والحزن والكبت تؤثر تأثيراً مباشراً في الوظائف العضوية وإن هذه الحقيقة قد أكدت من قبل كثير من علماء التشريح وإن أحدهم ليمضي فيقول:

(1) سورة الزمر، الآية: 10.

(2) سورة الرعد، الآية: 29.

«لقد أيقنت أن العلاج الحقيقي لا بد أن يشمل الروح والجسم معاً وفي وقت واحد، وأدركت أن من واجبي أن أطبق معلوماتي الطبية والجراحية إلى جانب إيماني بالله وعلمي به، ولقد أقمت كلتا الناحيتين على أساس قويم. بهذه الطريقة وحدها استطعت أن أقدم لمرضاي العلاج الكامل الذي يحتاجون إليه.

ولقد وجدت بعد تدبر عميق أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة.

أما إذا أبعد الإنسان ربه عن هذا المحيط؛ فإن محاولاته لا تكون إلا نصف العلاج بل قد لا تبلغ هذا القدر:

إذن فلم البحث المضني، والكد المرهق في طيات الكتب وتجارب الناس؟

وبين أيدينا العلاج الناجح والبلسم الشافي لكل هذه الأمراض النفسية. ففي القرآن الكريم غثى من الوصفات الطبية التي حث المسلم على أن يلتزم بتعاطيها دون انقطاع ليكتسب المناعة من كل داء، ويعوذ بالله من شر هواجس النفس وطوارق الليل وحبال الشيطان.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَامَسَهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَامَسَهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمَصْلِينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝ وَالَّذِينَ فِي أَنْوَالِهِمْ نَحْوٌ مَّغْلُومٌ ۝ لِّلْسَائِلِ وَالْخُرُومِ ۝ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ مَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ لَأَمْلَأَنَّهُمْ وَعِصْيَانَهُمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ ۝ أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۝﴾ (1).

(1) سورة المعارج، الآيات: 19-35.

1 - يمضي الدرس في دقة توضيحه لنتيجة فحص حقيقة الانسان؛ لبيدو عارياً بخلقه حيث خلقت معه جرثومة الهلع منذ البداية لتنمو وتتوالد، فتلتهم كيانه وتمزق عناصر التوازن فيه، ثم تجعله يتأرجح جزوعاً منوعاً يتقاذفه الطمع والشح استجابة لتقلبات الحياة التي لا تستقر على حال.

وهو يتخبط في هبوط نتيجة استسلامه لمرضه المزمن الذي لم يكن له من علاج يجدي سوى ما يحدده القرآن الكريم من وصفات الشفاء.

وصفات الشفاء:

أولها: إنها الصلاة بديمومتها التي تجعل من سلسلة نورها للمسلم مدداً لا ينقطع ومن رصيدها عدداً لا ينفد، إنها الصلة المتجددة بربه يلتقي به في يومه بكرة وأصيلاً، وكذلك ما بين البدء والختام.

وثانيها: الاعتراف بحق السائل والمحروم؛ إذ أن في مثل هذا الاعتراف تنمية للروابط الاجتماعية وزرعاً لبذور الراحة النفسية والأمن الاجتماعي، وتغذية لمشاعر الأخوة، وتوطيداً لأركان المودة التي تكسب النفس الإنسانية المناعة القاهرة لنوازع الشح والأثرة.

وثالثها: وهي الركيزة الأساسية في اعتدال وصفة الشفاء ووقوفها رشيقة القوام راسخة الأقدام، لأن المصدق بيوم الحساب إنما ينظر للأشياء بنور الله، ويزن الأمور بميزان المنهج القرآني، حيث يحس بالسعادة حين يقدم لأنه يرى في الإحجام كمداً وشفاء.

ورابعها: إنها الخوف من عذاب الله ومن يخف الله يكن دائماً في حماه، ومن يحمد الله فإنه يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ويخشاه ويتقيه لتخلو نفسه من عقدة الشعور بالذنب وتأنيب الضمير.

وخامس الوصفات: إنما تتعلق بطهارة المؤمن ونظافته من درن الفاحشة وقذارة الجنس إن وقعت في غير طريقها المشروع فخطورتها عندئذ واضحة

بينة، فلا أحد قط يماري ولا يجادل، ففي نفس كل محاول ألف دليل ودليل.

إنها تدمر النفس وتزعزع كيان الأمة، وتحطّم أواصر المجتمع وتفتت وشائج الأسرة.

وسادسها: إنها الدعامة الكبرى التي يقام عليها نظام الأمة؛ لأنها أمانة العقيدة في استقامتها ورعايتها واحتوائها لكل شؤون الحياة، فيها ينتشر الأمن بين أفراد الأمة ويخلو المجتمع من عدوى أمراض الغش والمكر والخداع، حيث تغشاه نفحة من روح الله.

وسابعها: أما القيام بأداء الشهادة في حدودها التي رسمت صادقة مستقيمة معتدلة لا ميل فيها ولا تحريف، فإنما يبلغ بالمؤمن قمة الانسجام النفسي حيث يحس بنشوة الانتصار على نوازع الشر ولذة إبداء الحق التي تخترق حجب ظلام الباطل، ثم تنبّه إلى أن للمؤمن - بسمته هذه - اليد الطولى في بناء صرح العدالة في المجتمع الذي يريده الله ويرتضيه.

والثامنة: إنها الصلاة، وصفة الشفاء التي يعود إليها الدرس ليختم بطاقة الوصفات كما بُدئت دوام في أولها وحفظ في النهاية ليجتمع الاثنان ويقترن الإلفان في تحديد وقتها وتأديتها محفوظة بحركاتها وأقوالها حرصاً على حلقات الصلة النظيفة الطاهرة التي تمنح النفس جرعات الشفاء المتعاقبة سكية وعافية وفرجاً من كل كرب ونجاة من كل ضيق.

﴿أَوَلَيْكَ فِي جَنَّتِي مُكْرَمُونَ﴾ (1)

ولم نزل نحبو تحت مظلة وصفات الشفاء التي يمتد ظلها الوارف ليشمل جوانب النفس فيصوغ منها نفساً لها من حظ الكمال البشري أوفر نصيباً وأجمل زاداً.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (62)

(1) سورة المعارج، الآية: 35.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِرَبِّهِمْ تَجَدُّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٧﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٨﴾ (2).

1 - إنهم عباد الرحمن قد ورد ذكرهم بهذه الصفة بطريقة الإخبار في افتتاحية الدرس، إنما جاءت بتركيبها الإضافي لتشير الانتباه الواعي إلى إدراك حقيقة العبودية التي تعني الخضوع في قمته المتناهية الناشئة عن استشعار القلب عظمة المعبود.

ثم يأتي التعبير بكلمة «الرحمن» موحياً في صدق ووضوح بإحدى دعائم المنهج التربوية التي تشتق من الرحمة في انتظامها وانسجامها وتناسقها في عقد واحد مع العبودية: كن عبداً لمن يكون بك رحيماً. إذن، فالربط هنا قد يبدو رائعاً محكماً. فصفة الرحمن أنما تسع كل معاني الرحمة في شتى مجالاتها؛ لأنها لله وحده وليست لسواه.

ولا أحد أجدر أن يتفياً ظلّها غير عبد تشربّت نفسه وصفات الشفات.

2 - إن في مشيتهم قبساً من نور الله لا اختيالا ولا بطراً ولا ضعفاً، ولكنها المشية التي حدد سمتها الرحمن، ووضع هيئتها بكل مقوماتها وقوامها.

3 - وإن الأرض لتستحق أن يرفق بها، وإن الجاهلين لكذلك. فهم الأجدر بأن يُردّ على خطابهم بهمسة السلام الرقيقة الرائقة لتتم الدائرة الأخلاقية قولاً وحركة، ثم تتدرّج في تساميتها لتصل إلى ذروة السلم التعليمي: سلوكاً وعقيدة. حيث تتحوّل عبر محاورها المنتظمة لتؤكد حقيقة التوسط والاعتدال، لا إسراف ولا تقتير، وإنما الانفاق بصورته المتناسقة التي تجعل محور الارتكاز ثابتاً في بناء الأمة والفرد معاً. فالإسراف داء يصيب الفرد فيفسد نفسه قبل أن يفسد ماله وخلقه.

(2) سورة الفرقان، الآيات: 66-63.

وإن هذا المرض لينتشر فيتغلغل في نفوس الأفراد حتى يصبح المجتمع خاضعاً في حاجته الاقتصادية إلى من يستدله ويسترقه بالتحكم في حريته.

والإسراف والتبذير صنوان يخرجان من مشكاة واحدة؛ لأنهما إلفان، فكلاهما من وحي الشيطان. كما أن السرف يدل لغة على الضراوة؛ فهو في إصابته ضارّ عنيف، إنما يجهز على النفس والجسم في آن واحد؛ لذلك كان التحذير منه شديداً. فقد كره الله المترفين وجعل المبذرين إخواناً للشياطين إبرازاً لخطر هذه الفئة على المجتمع، وتنبيهاً لأخذ الحيلة، وذلك باستيعاب المعلومة التي تحدّد مقدار الإنفاق بالدقة الكفيلة بإبقاء كفتي الميزان معتدلة، لا استيفاء ولا خسران.

ولقد حذر القرآن من الإسراف حتى فيما يتعلق بنية الفرد الجسمية من أكل وشرب فهو قد يؤدّي إلى عبودية مقبلة لأكلة شهية فيظلّ مرتبطاً بمعدته حيث يصير منهوماً لا يشبع وطمأن لا يرتوي، فإذا كان في مقبل العمر انحرف به شرهه عن جادة الأخلاق الحميدة، وإن هو قطع شوطاً من عمره انتكس في خلقه فعاش يأكله المرض ويلتهمه القلق والهم.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامٌ^{٦٩} وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا^{٧٠} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا^{٧١} إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^{٧٢} وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا^{٧٣} وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا^{٧٤} وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا^{٧٥} وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّحِينَ إِمَامًا^{٧٦} أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْعُقُوتَ بِمَا صَبَرُوا

وَيَلْقَوْنَ فِيهَا قَبِيَّةً وَكَامِيَةً ۖ خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مَسَاقِرُهَا
وَمَقَامُهَا ۖ قُلْ مَا يَنْغِبُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ
لَكُمْ لِمَامٌ ۖ (1).

1 - وتتم وصفات الشفاء بعد أن مر الدرس بحركتي النفس والجسم معاً ثم
يشرح بانتظام يركّز على ترتيب السمات التي تكتمل بها تركيبة عباد
الرحمن الذين استحقوا عن جدارة شرف التسجيل في قائمة الرحمن
لأنهم لا يتجهون لسواه، فهو سمعهم وبصرهم، إنه يدهم التي يبطشون
بها ورجلهم التي بها يمشون، فهو معهم أينما كانوا وحيثما وجدوا، لا
يخرجون عن دائرة الله، في سبيله يجاهدون، وإذا انتصروا كان نصرهم
لدين الله.

2 - وإن باب التسجيل في قائمة عباد الرحمن لم يزل مفتوحاً على
مصراعيه، يقبل كل من هبّت على ضميره نسمة التوبة فأيقظته من غفوته
فجاء يركض يحتمي بحمى الله ويلجأ إلى ساحاته ناجياً من أليم عذابه
وشديد عقابه.

3 - ويعود الدرس ليوضح سمة من أهم سمات التربية الاجتماعية، وهي
شهادة الزور، تلك الظاهرة الخطيرة التي تؤدي إلى تضييع الحقوق ونشر
الفساد وتفاقم الشر والحق.

إن عباد الرحمن ليربأوا بأنفسهم عن سماعها فضلاً عن تأديتها؛ لأن لديهم
من الأعمال الصالحة ما يصرفهم عن الخوض فيما يلغو به اللاغون، ويهتف به
الفارغون من سقط القول وعبث الحديث.

4 - ويتأكد اللجوء إلى الله وتترسخ الصلة حيث يتم الاتجاه المفعم بالثقة
والرغبة في تعميم الخير للأجيال المتعاقبة التي تنشأ وهي محضن

(1) سورة الفرقان، الآيات: 67-77.

التربية الإلهية ساعية لأداء الأمانة تنفيذاً لإرادة الله الذي أعدّ لهم أعظم ما يقر العين ويثلج الصدر في غرف الرحمن أعز مكان وأجمل مستقر يستقبلون بالترحاب والتحية والسلام.

5 - وفي الختام لفظة تناسب نهاية الدرس حيث يصدر الأمر الإلهي للنبي صلوات الله عليه، تعزيزاً وتخفيفاً عما يكابده من عناد وجحود، وتحريضاً لمن يتخلف عن تسجيل اسمه في قائمة عباد الرحمن من أن يبادروا للانضمام قبل أن يسبق عليه القول فيكون من الخاسرين.

﴿قُلْ مَا يَعْذَرُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (1).

ولم تزل وصفات الشفاء تشع بنورها فتغمر بفيضها من يفوز بصدق الإيمان وخشية الله. ومن أجدر بالخشية؟ إنه الله عز وجل؛ لأن الخشية إنما تعني الخوف. والخوف علام؟ أعلى النفس والمال يخاف الناس، أم على الجاه والسلطان يجزعون؟

أم إنهم على الولد والأسرة يشفقون؟ لكنهم على كل شيء عزيز يجلونه ويقدرونه ويحترمونه.

فالاحترام إنما هو خيط متين يحكم الربط بين من لا تطيب له الحياة إلا مع الآخرين ومن لا يحيا إلا يالف يحن إليه ويأنس به.

أما الخوف من القادر القوي فإنه يجعل المرء يدرك مدى عمق الصلة التي تشده إلى خالقه بغير انفكاك.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ

(1) سورة الفرقان، الآيات: 77.

مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ ⑨ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⑪ (1).

1 - لقد تَوَجَّ الدرس بأسلوب يحمل ما يفيد التحقيق والتشويق والإثارة؛ ليكون جوه - بمقدمته هذه - منعشاً للنفس، موقظاً للقلب، محرراً للوجدان، يرسم عنوانه بأجمل صورة وأحسن إطار، وأبدع عبارة، إنه الوثيقة الإلهية والوعد الذي لا خلف فيه، إنهم يفوزون أفراداً كما يفلاحون مجتمعاً وأمة. فما من أحد إلا ويود أن يفوز ويفلح في حياته بأبعادها المتعددة. فكلمة الفلاح أثيرة على النفس جميلة في وقعها، فلو قلت لأحد: أنت أفلحت في عملك لاحظت في التواطيب الأثر وأعماق الارتياح على وجهه بادياً؛ لأن النفس - بسجيته - تطرب للثناء وتهش للمديح مثلما تنقبض للذم وتكرهه.

2 - لذلك كانت المقدمة حافلة بألوان من التشويق: من وعد وورد في وعاء من التحقيق المؤكد. إلى فوز شامل وفلاح عام يحتوي دروب الحياة الدنيا، ويضم في وقار لبق أودية الحياة الأخرى بكل ما فيها من نعيم مقيم مدخور من قبل الله لعباده المؤمنين.

ومن أجل ذلك كانت صفة الإيمان تحتل أرفع مكان؛ لتضع صاحبها في أسمى منزلة: ليكون في موقعه الآمن الذي لا يستطيع أن يتخلى عنه، فكيف إذن، وهو المؤمن، يسمح لنفسه أن يخلع رداء الإيمان الذي ارتضى أن يكون له ساتراً؟

وما جاء في مقدمة الدرس إنما هو انتزاع للاستجابة وحض على الاقتداء

(1) سورة المؤمنون، الآيات 1-11.

بمن توافرت فيهم هذه الصفات التي تبرز كمال المؤمن بملامحه الواضحة وتحدد هويته بسمته العملية التي تجعل منه مؤمناً ينكر ذاته ولا يقبل أن يُرضي غروره أبداً، وذلك بأن يحب أن يسمع ثناءً ومدحاً على ما لم يفعل.

﴿لَا يَخْشَوْنَ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَكَلا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَارَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (1).

3 - السمة البارزة التي تأتي دائماً في مقدمة القائمة فتحتل قمّتها إنما هي الصلاة؛ لأنها المظلة الواقية والقمة العاصمة من كل سوء، الحماية من الأذى، المنجية من الهلاك الماحق. فمن شاء أن ينجو فليحافظ عليها بخشوعها حينما يقف بين يدي الله يستشعر قلبه رهبة الموقف، فيسكن حيث تختفي جميع شواغل الدنيا وتتضاءل كل الحركات إلا حركة الاتجاه إلى الله وحده. فلا لغو في القول ولا لغو في العمل ولكنها الحياة الجادة، حياة البناء والتشييد والرقى والسعي من أجل خدمة الأمة ورفع شأنها.

لذا نجد القرآن الكريم قد ركّز على الدعوة الملحة فيما يتعلق بركن الزكاة عقب ذكر ركن الصلاة في الترتيب مباشرة؛ لأنها الدعامة الأساسية التي تنهض على أديمها القاعدة الاقتصادية. ولأنها أيضاً دعوة تحمل في طياتها حثّ المؤمن المستمرّ على السعي الدؤوب لتنمية ثروة الأمة وزيادة دخلها. إضافة إلى هذا فهي السبيل الواضح إلى تكوين النواة الأولى في وحدة الجماعة.

4 - وإن من أهم الأسس التي تتضافر على بقاء الأمة قوية متماسكة عفة أفرادها ومحافظةهم على أن يحيوا في نظافة وطهر ليكونوا في مأمن من دنس الفاحشة وخبثها. وقد حدّدت طريقها لتحفظ البيت وتصون للنشء كرامته منذ البذرة الأولى لتنمو في تربتها آمنة تنعم بنقاوة الأصل وصفاء

(1) سورة آل عمران، الآية: 188.

النسب حيث يحسّ الطفل بأن دم النبوة يسري في كيانه رائقاً بمعرفة انتمائه إلى أب يعتزّ به ويفخر بأنه إنما جاء إلى هذا العالم من طريق سمح مشروع واضح المعالم لا التواء فيه، حتى لا تخذش عرضه حقارة الإنكار ولا توجه إليه أصابع الاتهام بجرم هو من اقترافه - لا ريب - بريء وإذا اختفت هذه الصورة القاتمة من المجتمع حلّت مكانها صورة مشرقة وضيفة تتلأل على صفحتها معانٍ جليّة من العفاف والطهر.

5 - إن الأمانة لتؤدي وإنها لترعى وإنها لشحمل ولكن حملها ثقيل يعود من لا يكون لحملها أهلاً وينوء بمن لا تتوافر فيه وصفات الشفاء؛ لأنها أمانة متعددة الجوانب: قد تكون تجاه النفس في شتى نواحيها أو قد تصبح في اتجاهها نحو ذوي القربى لتمتد بعد ذلك فتغطي ساحة المجتمع وشعاب الأمة، أو هي قد تكون أمانة التكاليف بحدودها وتعرجاتها وأسيجتها فمن يتعد حدود الله فقد خان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾.

فالتخلي عن الأمانة في أي اتجاه من اتجاهاتها خيانة لله والرسول، ومن يقعد عن الجهاد لتحقيقها إنما يبيع نفسه قبل أن يهدم بناء أمته. إنه يخيس بعهد الله الذي لا وفاء به لمن لا أمانة له.

فرعاية العهد شفاء لما في الصدور، وتأدية الأمانة كذلك دواء وامتنالاً لأمر الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وأورثه أرغد نعيم.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽²⁾.

(1) سورة الأنفال، الآية: 27.

(2) سورة المؤمنون، الآيتان: 10، 11.

ففي محيط الأسرة:

الأسرة هي الومضة التي تضيء طريق المرء في رحلته الأرضية القصيرة، وهي القبسة الإلهية التي تربط مشاعر الفرد بخيوط نورها فتجمل منه مخلوقاً ذا كيان يحسّ بانتسمائه العجائش بعواطف الاعتزاز والنخرة لأنها المأوى المضمّن بادفء المودة وعطر السكن.

ولأنها الملجأ الذي يزخر بعبير الاستقرار والأمن وفوق كل ذلك إنها مخمس العنان الذي تمتدّ منه اليد السحانية بلمساتها فتزرع في النفس بذور الندوة والسكينة. وإن المرء ليرنوا ببصره إلى الأفق البعيد أو القريب فلم ير من حوله سوى الذين تشدهم إليه وشيجة القربى وصلة الرحم، وإن هو توهم أن يكون يوماً عنهم مستغنياً، أو أنهم في غنى عنه، فلن يصدق في وهمه، وإن جدّ في طلب المسوغ فليس بواجده؛ لأن المسوغ مفقود، إذ كيف يجرؤ اسرؤ أن يتجاوز حدّاً رسمته يد الإله؟ أب يوعى، وأم تحنو، وأخ يذود ويشد من الأزرق، وأخت تعطف، ثم زوج تنحني إجلالاً لتحمل هموم الحياة وتحفّف عن كاهل الزوج ما يثقله.

هكذا يمضي الجميع في تناغم وانسجام ويرسم الودّ قنوات التقدير والاحترام.

ويحدّد المنهج القرآني مسالك العلاقات بين الأفراد، ولكنها العلاقة ذات الإطار العقدي الذي يقف بالمسلم عند نقطة التوجيه التربوي.

فالاختلاف في العقيدة إن أسقط حق طاعة الولدين فإنه لا يسقط حقهما في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة، حيث تبقى صخرة العقيدة صامدة ليكون لها في النهاية النصر المبين.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا

تُطْعِمُهُمَا إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كَرِيمًا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كُنْزٌ خَلَنَّهُمْ فِي الصَّلَاحِينَ ﴿١﴾

1 - ومن أين كانت البداية؟

إن الدرس ليبدأ جولته من القاعدة لتكون اللفتة منسجمة مع لفتات الإصلاح ذات الحلقات المتماسكة، فتنهض سليمة في نشأتها عملاقة في تحركها ثابتة في خطواتها فقد صدرت التوصية. من الذي أصدرها؟ ولمن وجهت؟

إنها من خالق الخلق قد صدرت رفعة لشأن الإنسان وإعلاء لقدره ليلبغ شأوه في مجال السمو الخلقي ويقف وهو يدرك جيداً حقيقة الأمومة في قدسية حنانها وصفاء مودتها عندما تجود بأعز ما تملك في غير تأفف ولا شكوى.

ويتطلع - وهو يعي معنى الأبوة في كفاحها من أجل إرواء نبتة الجيل المتلهفة إلى بناء المستقبل في تفاؤل وشوق مشرق بنور الحياة المتدفق بالدماء المتجددة بحيوية الشباب وبهجته.

2 - إن الإحسان إلى الوالدين ليقترن - حقاً - بعبادة الله؛ لأن لهما فضل التربية.

فكيف إذن - لا يظفران في حياتهما المدبرة بنظرة عطف ولمسة حنان؟ فما يفعل الابن من بر إنما هو دين يفي به ولن يفي؛ لأن الدين باهظ القيمة متنوع العدد. فمهما عظمت الرعاية ومهما طال السهر على راحتها فلن يكون ببالغ معشار ما بذلاه من جهد وعرق.

وإن الإحسان ليتسع في معناه اتساعاً يشمل كل همسة ولمسة حتى النظرة لا بد أن تحمل ما يعبر - بصدق - عن بالغ التقدير ووافر الاحترام؛ ليشعر

(1) سورة العنكبوت، الآيتان: 7، 8.

الوالدان بأن في كل خفقة قلب هتافاً يشيد بجليل تضحياتهما. وكم يسعدهما أن يبثّ فيهما الإحساس بالثقة التي تجعلهما يعتزان بأن لهما وزناً كبيراً بين أفراد الأسرة ليريا بعد ذلك دورهما في المجتمع.

ولقد أوضح «علم النفس» بأن للمسنين أمراضاً نفسية تتلخّص فيما يلي:

- 1 - شدة حساسيتهم نحو ذواتهم.
 - 2 - إعجابهم بتاريخ حياتهم، وكذلك إعجابهم بجيلهم الذي يعتبر إعجاباً بأنفسهم ولكنه بطريق غير مباشر.
 - 3 - إحساسهم بضالة حاضريهم بالمقارنة بماضيهم؛ لأنهم يرون في ماضيهم الفتوة والقوة والحيوية والنشاط.
 - 4 - الاهتمام بالأمور العقلية دون سواها، وهذا يعزى إلى أن الذاكرة في مثل هذه المرحلة من العمر تلجأ إلى الاقتصاد فيما يتعلق بالاهتمامات الأخرى التي لا ترى داعي للانشغال بها حتى لا تقع في دائرة الإرهاق.
 - 5 - عدم الاستعداد للتنازل عن آرائهم أو تعديلها والسبب في ذلك أن فكرهم قد تبلور وتحددت آراؤهم حيال الموضوعات العامة.
 - 6 - الشك في نيات الآخرين تجاههم وعدم الثقة بهم.
 - 7 - الإلحاح في الطلب لأنهم يرون في إدار حياتهم حقوقاً قد تضخّمت يجب أن يفى بها الآخرون، بغير أن يتباطأوا كما ينزعجون إن لم تلب طلباتهم لإحساسهم بأنهم قد أهملوا فلا أحد يعيرهم أي اهتمام.
- ولا شيء أقسى على النفس من أن يبقى المرء كالشيء في زاوية الإهمال.
- لذا كانت الوصية بالوالدين بالغة الأهمية بتكرارها، فقد تركّزت على العناية بهما، وسجلت بأبلغ عبارة شدة إحساسهما وشفافيتهما إن هما بلغا من الكبر عتياً حيث حذر الأبناء أن يتجنّبوا إيذاءهما ويتعدوا عما يجرح شعورهما ولو بإظهار التضجر والقلق المنافيين للرفق والرفقة.

﴿وَقَفَّوْاْ لَكُمْ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالْإِلَهِاتِ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا بُغِيَ إِلَيْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْيُسْرَىٰ أَحَدُهَا أَوْ كَلًّا وَالْآخَرُ شَقًّا وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ لَعْنَةُ الْكَافِرِينَ وَالْخَافِضِينَ لِزُلْمِهِمُ الْبِغْيَاءَ وَالنَّكَاحَاتِ وَالَّذِينَ يَنْتَقِبُونَ أَسْمَاءَ آبَاءِهِمْ لِزُكْرِ الْوَيْدِ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوكَ سَرًّا يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ لَوْلَا إِتْرَافُ الْوَيْدِ لَكُنَّا مِنَ الْمَلَأَيْنِ الْمُنِغِينَ﴾ (1).

أما إذا تدخل سلطان الوالد في -بالأولاد- إلى الشرك وعائفاً عند كلمة التوحيد فهي مبرهنة، عند ذلك فإن ينفي للأبوة سلطان ولا للأُمومة به، فإن طاعة لسلطان في محسنة الخلق وإنهما يأتي بيقين من السحاب المنبري ﴿وَمَنْ يَعْصِ أَمْرًا مِنْ رَبِّهِ فَإِنَّهُ يَبْتَغِ الْوَسِيلَةَ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيَسْأَلُ مِنْهُ جُزْءًا مِمَّا رَزَقَهُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأَنْتُمْ فِيهَا كَالْعِجَالِ﴾ (2).

مصاحبة في الدنيا فقط أما بعد ذلك فإن لكل سببه الذي هو ماضٍ - .
﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَ الْيَوْمِ الْمَعْتَدِ وَشَرَّحْنَاهُ نَضْجَ الْوَرْدِ وَالْحَبْلَ الْمُتَنَزِّلَ لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾ (3).

إذن فلا الأرحام بنافعة ولا الأولاد بمنتدين إلا من يأتي ربه وهو يحمل في قلبه طهر العقيدة وإشراق الإيمان.

﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (3).

لا بد هنا من وقفة تأمل وتدبر. إن المشهد المثير حقاً يشد الانتباه ويسترعي النظر صورة بكل محتوياتها تبرز ملامح الصراع النفسي جلياً واضحاً حيث العقيدة في كفة وعاطفة الأبوة والأمومة في كفة أخرى.

وإن سعد بن أبي وقاص ليرسم خطوط هذا المشهد ويُخبر ديباجته إذ

(1) سورة الاسراء، الآيتان: 23، 24.

(2) سورة الاسراء، الآيتان: 13، 14.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 7.

بمضي ينسج خيوط قصته وهو في صموده - الخيط تلو الآخر حتى ينتهي إلى خيط القمة في تاج العقيدة الصامد المنتصر.

إن أم سعد هذا قد أضربت عن الطعام والشراب حتى يعود ابنها سعد إلى دين آبائه وقومه ولكنه يقف شامخاً صامداً متمسكاً بعقيدته. وتصر الأم في تصميم مستنيت حتى تشرف على الهلاك.

ويستغيث الأشمل متوسلين إلى سعد أن يصحبهم ليرى أمه وهي تعاني سكرات الموت لعل قلبه يرق فيرحم تلك البجوز، بيد أن لسعد قلباً عامراً بالإيمان، الإيمان الذي يفوق في قوته أعتى المؤثرات وأقسى المغريات.

لقد رأها سعد ابنها، فدنا منها ورفع صوته لتسمعه قائلاً:

«تعلمين - والله - يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء فكلي إن شئت - أو لا تأكلي»

ثم أسدلت الستارة وانتهى المشهد، وأفادت الأم من غيبوبتها عادلة عن عزمها وينزل الوحي يبارك موقف «سعد» ويشيد بعزمه وصلابته في الحق.

﴿وَأَن جَاهِدَكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُكُمْ فِي الدُّنْيَا مَفْرُوفٌ وَآتِغِ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (1).

وتمضي الأيام بسعد وهو خير صاحب متبعا سبيل الله، يحسن العشرة، نبلاً في لقائه، كريماً في معاملته، وفيّاً في عهده.

قافلة الايمان:

وتمضي القافلة تغدو السير في محيط الأسرة لتحدّد معالم الطريق التي تفضي في غير مشقة ولا عنت إلى مغام كثيرة يجد في رحابها المؤمن أرقى

(1) سورة لقمان، الآية: 14.

ألوان النفع وأوفر أنواع الفائدة وأجل المنح والعطايا؛ لأنه زرع فتعهد الزرع وانتظر؛ ليكون للحصاد يوم. ورجا مخلصاً لكي يجتمع له في المصرف رصيد، يوم أن تعز الأرصدة وتقل الأزواد، ساعة أن تقطع الوشائج وتنمحي ملامح القربى وتختفي جسور الأرحام.

حينذاك، فلا اعتبار لصحبة هي في الدنيا رذاذ أو سراب؛ لأن لها منتهى تقف عنده، وموقف تحطّ فيه رحالها وتدع في زواياه أحمالها. فالمرحلة إذن، مرحلة فصل وانتقاء فليس لمن توقع أن يستفيد مغنم، ولا لمن رام الخير في موقع نفع.

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ الْإِقْوَالُ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُونَ لَكَ وَمَا أَمَّا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنَا نَحْنُ وَإِلَيْكَ مُصِيرٌ﴾ (1)

1 - حمل الدرس مشعل الهداية والإيقاظ والتنبيه وقد أكد مؤبداً ألا نفع يرجى من رحم، ولا فائدة تنتظر من ولد؛ فما في ذلك اليوم من رابطة ترى سوى رابطة العقيدة.

2 - ثم ينبّه الدرس الى أفق من آفاق التاريخ، بعيد بعيد لربط الإنسان تربوياً بأصوله، فيذكره بأن له ماضياً غنياً بعراقته وتجاربه المضيق التي يستمد من فيضها المنهج روافد نهري الزاخر ومعينه الثر. يرشده فيضع يده على حقيقة هي في التاريخ موعلة، ولكنها ذات نور وهاج يرسل شعاعه فيملأ قلوب المؤمنين ويغمر بفيض سكينته نفوسهم أسوة واقتداء.

3 - إن الإيمان وحده هو الفاصل المميز إذ لا يلتقي بنوره مع ظلام الكفر. فلا انتماء لقوم ولا حب لولد ولا موالاة لأمة ولكنها العقيدة هي التي تعلو فوق كل الاعتبارات.

(1) سورة الممتحنة، الآيتان: 3، 4.

﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ...﴾ (1)

4 - إن الدرس ليلمس بأصبعه حقيقة هي في ظاهرها قد تشير في النفس استفساراً، إنها قد جاءت بصورتها مشرقة: لتضع المعلومة في قلبها التربوي الهادف لتنفذ بعد ذلك في خفة رشيقة إلى مداخل النفس حيث تستقر مشروحة بتفصيلاتها التي تزيح الستار ليقى موقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه جلياً استكمالاً لحلقات الدرس وتتمّة لفصول التجربة. فقد كان إبراهيم عليه السلام يتألم أشد الألم، إذ يرى أباه وقد انضم إلى قافلة الشرك في إصرار.

ولكنه من خلال وخزات الألم تلك، كان يتلهّف شوقاً ويرجو متوقفاً أن يرى لأبيه بارقة أمل في رجائه ولحظة إنابة، لعل ذلك الأب يلمح في ثناياها ومضة من ومضات الإيمان فيؤوب تائباً مستسلماً.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِرْكَ...﴾ (2)

ويخيب الرجاء، وتتلاشى ذرات الأمل. ولم يجد إبراهيم الحليم المنيب خيطاً يصله بخيط رجائه عندئذ يفوض الأمر كله لله، ويتوجه إليه بالتوكّل المطلق.

﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَتَّبْنَا عَلَيْكَ تَوَكُّلاً وَإِلَيْكَ أَبْتِئَاوُ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ...﴾ (3)

5 - وينتهي الدرس بخاتمته المؤلمة حيث يمضي الأب في طريقه المسدود بتبلعه ظلمات الكفر غير مبالي بما سيلاقيه من عقاب أليم ومصير سيىء.

6 - وقد يكون ولدك فتنة - فلا غرابة إنه لكذلك، وإذا حدث ووقع فإن الخطب

(1) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(2) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(3) سورة الممتحنة، الآية: 4.

قد يعظم والكرب يشتد؛ لأن من مكمن الأمن قد يعطل الخطر، ومن
الخصن اللدن الطري قد تمتد بالمنشار يد لتقطع جذع الشجرة الوارفة
الظل؛ لينهدم البناء هكذا وتسقط الشرفة لتقوض الأساس،
إن عاطفة الأبوة حين تنطلق مدفوعة بحب الولد في انحرافها لتأخذ سدمرة
-مارقة لبنة العقيدة خائفة لكلمة التوحيد.

﴿وَأَعْمَلُوا أَنْتُمْ أَمْوَالَكُمْ وَأُولَٰئِكَ فَتَنُ اللَّهِ وَأَنْتُمْ فِيهِ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٢٩﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَحْتَسِلْ لَكُمْ فُرْقَانًا يُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ (2).

إنها الفتنة التي تزحف بعنفها لتلتهم كل طري ويابس، وتلوي أعناق الذين لا
ينتبهون إلى منرجات الامتحان العسير في الولد والمال، فالاغترار بمثل هذه
الزينة يقود إلى الوقوع في مهاوي الردى. لذا كان التحذير لا ينقطع بمختلف
الأساليب، سلباً وإيجاباً. ثم يعتمد الدرس معقبات بنداؤه الودود الرفيق الذي يثبت
في النفس الأمن والطمأنينة، وذلك بتعليق المكافأة على تقوى الله، فمتى
فزت فنت درجة النجاح واجتزت الامتحان فإنك ستمنح الجائزة بجداره،
وعندئذ يحق لك أن ترفع رأسك اعتزازاً، وتفخر بأنك عضو صالح بمكانه
المرموق في قافلة الإيمان.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنا نَزَّلْنَا الْإِيمَانَ آمِنًا وَعَمَلُ الصَّالِحِينَ
فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْفِرْقَةِ آمِنُونَ﴾ (1).

وهذه حقيقة يقررها الدرس في خاتمته، وهو أن المال والولد إنما هما هبة
من الله. غير أن هذه الهبة ليست بذاتها هي التي تقرب من الله ولكن القاعدة
الأساسية التي يبلغ بها المرء قمة النجاح ويعتلي سنام النجاة إنما هي الإيمان
الذي يترجمه العمل الصالح؛ ليكون الجزاء مضاعفاً والريح وثيراً.

(1) سورة الأنفال، الآيتان: 28، 29. (2) سورة سبأ، الآية: 37

المراجع

القرآن الكريم

- 1 - تفسير القرآن الكريم، الشيخ محمود شلتوت.
 - 2 - التفسير الفريد للقرآن المجيد، الأستاذ عبد المنعم الجمال.
 - 3 - تفسير المنار، الشيخ محمد عبده.
- التربية وعلم النفس:
- 4 - خلاصة علم النفس، د. أحمد الأهواني.
 - 5 - اعرف نفسك، د. فاخر عاقل.
 - 6 - علم النفس الاجتماعي، د. سعد جلال.
 - 7 - سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي نقره.
 - 8 - مواضيع في التربية وعلم النفس، محمد زهير مشاركة/ يونس ناصر/
جوزيف عبود كبه
 - 9 - الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية، جورج شهلا/ عبد السميع
حوربلي/ ألماس حنانيا.

- 10 - لمحات في وسائل التربية الاسلامية وغاياتها، الأستاذ محمد أمين المصري.
- 11 - الدروس التي تتعلمها التربية من علم النفس، برسيغال سيموندرز، ترجمة عبد الرحمن صالح عبدالله
- 12 - المعرفة في منهج القرآن الكريم دراسة في الدعوة والدعاء، الأستاذ صابر طعيمه.
- 13 - روح الدين الاسلامي، الأستاذ عبد الفتاح طباره
- 14 - من توجيهات الاسلام، الشيخ محمود شلتوت.
- 15 - معالم الشريعة الاسلامية، د. صبحي الصالح.
- 16 - الاسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي.
- 17 - الانسان في القرآن، الأستاذ عباس محمود العقاد.
- 18 - الفلسفة القرآنية، الأستاذ عباس محمود العقاد.
- 19 - القرآن والقصة الحديثة، الأستاذ محمد كامل.
- 20 - القرآن في شهر القرآن، د. عبد الحلیم محمود.
- 21 - الاسلام والعصر، د. عبد العزيز كامل.
- 22 - من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي.

المؤلف

* من مواليد مصراته بليبيا عام 1933.

* خريج كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام 1966.

* يعمل كموجه تربوي لمادتي اللغة العربية والتربية القرآنية.

* من تأليفه :

1- في صحبة القرآن.

2- نساء تحدث عنهن القرآن.

هذا الكتاب

كثيراً من تناولوا علم التربية والنفس بالدراسة والبحث كانوا مقتنعين بأن وضع قواعده قد تم على يد علماء الغرب، ولم يقف هذا الاقتناع داخل دائرة الباحثين والدارسين بل انتقل إلى أبنائنا الطلبة عن طريق المناهج الدراسية التي ما فتحت تؤكد - بإصرار - بأن فضل السبق كان لأولئك العلماء.

هذا الكتاب يحاول بأسلوب علمي التأكيد بأن مقومات وأساس علم التربية والنفس تنبع من القرآن الكريم وأن القرآن الكريم هو أصل هذا العلم.

To: www.al-mostafa.com